**المؤلف :محمد بن سيف الرحبي**

(كاتب من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2016 (مسقط)

**الناشر:**

**بيت الغشام**

للصحافة والنشر والترجمة والإعلان

(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24591646 - 99260386
ص.ب: 2068 الرمز البريدي: 133
www.takweeen.net

التصميم الداخلي والغلاف: منيرة الهطالي

حقوق النشر محفوظة ولا يحق
إعادة الطباعة أو النسخ
إلا بإذن كتابي من المؤسسة

رقم الإيداع 460/2016
رقم الإيداع الدولي (ISBN):
978-99969-2-060-8

# على حين سفر

محمد بن سيف الرحبي

# السفر.. متعة القلق

لا أرمي أشرعتي قادما من سفر إلا وأقول أنني سأستكين قليلا، وسأقاطع المطارات والطائرات، أستعيد نفسي حينما أضع حقيبتي في البيت آيبا من مدينة ما، لكن هذه الاستكانة سرعان ما تتلاشى إذ تبدأ النفس الأمّارة بالسفر بإطلاق صفارات الحنين إلى بقعة جديدة لتراها، أو واحدة قديمة لتستعيد ذكرياتها فيها. بعد صدور كتابي شذى الأمكنة، الجزء الأول من «رحلات صحفية» وضعت نفسي في ورطة أن يأتي الرقم «2» على كتاب آخر يضم المزيد من هذه الرحلات، بما يمكن مقاربته بأدب الرحلات، إلا أن الرؤية الصحفية طاغية عليها، إنما في اكتشاف الأمكنة ما يلهب أخيلة حالمين بالسفر، أو يستعيد المسافر حنينه إليها حينما يقرأ رؤية، تتماس أو تتقاطع، مع رؤيته، عبر الكلمات.

ومنذ صدور شذى الأمكنة قبل ما يقارب عشر سنوات إلا أن الرغبة في جمع رحلات أخرى في كتاب بقيت مؤجلة رغم تكاثر المدن، بدأت من موسكو عام 2008، ولم تنته في بابل عام 2016، وبين المدينتين أسفار كثيرة، من الشرق إلى الغرب، بعض المدن تكررت في القائمة، وأخرى جديدة، لتكمل حسابي في عدّ البلدان التي زرتها فوصلت ثلاثين بلدا، نشرت عن ثمان منها في الإصدار السابق، وأسير على دروب عشر أخرى، مقتربا من الأمكنة بحس صحفي يقرأ أكثر مما يحلل، وينقل بالكلمات ما تراه عينه ويحسه قلبه فوق ما تحتاجه الرؤية من دراسة وتمعّن. السفر منفى اختياري، النظر إلى الوطن من على بعد. أن تسير غريبا، بإحساس غريب.. تعمد إلى مكان ربما يحيّرك في رؤيته، أو في العودة منه، أو في السير في تفاصيله. السفر فعل إرتباك منذ أن تقرر الذهاب إلى مكتب حجز التذاكر، حينها يغدو السفر واقعا، يسكنك قبل أن تتجه صوب المطار في الموعد المحدد بالضبط، ويقلقك أن تفوتك الرحلة، وأن يرفض موظف المطار وزن الشحن الزائد في حقائبك، وأن

لا تجد الفندق الملائم، ولا السيارة التي تقلك دون مفاجأة من سائق سيارة أجرة يبتزّك، إن لم تجد من ينتظرك هناك . في الذهاب أو الإياب، تقلقك عشرات الأشياء، لكنها المتعة اللازمة لتكسر حائط الروتين في أسوار حياتك وهي تتكرر بما لا تقبله النفس الراعفة بالحنين إلى المختلف من التجارب كي تبدو الحياة أجمل وأشهى.

هكذا أقرأ التجربة، وأراها، وأكتبها. ففي كل مدينة إحساس ما، هو شعور المسافر بالمختلف، ثلج موسكو يتناثر بياضا على وجه القادم من صحراء يلهبها الصيف، ويغدو شتاء شبه الجزيرة العربية مجرد ربيع موسكوفي، وأسير في بانجلور مغمورا في رائحة المكان التي شكلت جانبا من نسيجنا المحلي، روائح الشرق والبهارات، في جبال أندونيسيا أو على سواحل زنجبار، أو في سوق بابلي يشعر بالقلق رغم أن الزعيم لم يعد يسكن القصر المطل من ربوة المدينة، أو في تقاطيع إنسان يعبر شوارع جورجيا يفتش عن هويته الجديدة بعد تناثر الإتحاد السوفييتي قطع دومينو ركلها لاعب غاضب أسكرته الفودكا الروسية.

أتوق للسير متدثرا بالبرد، وللتفتيش عن التفاصيل الصغيرة في الأسواق، وللنظر في ملامح البشر ومفارقات الحجر وجماليات الشجر، ولكل سيرته التي لا تشبه أية سيرة، فلا تقاسيم الوجوه تتشابه، ولا الطبيعة، بما عليها من موجودات، ترتدي ذات الأزياء، وهي تعيش أعراسها حسب تغير الفصول.

لكل ساحل على بحر ما حكايته تقولها المدينة للزرقة، ولكل ضفة على النهر إيقاعات الحياة عليها كي تتقن قراءة نوتات النسمات تداعب خدّ الماء ينساب سحرا. هكذا السفر، حالة اكتشاف للمختلف، وهكذا الأمكنة، لحظة بوح عن التفاصيل، تقرأ كثيرا عن مكان ما، لكن ليس بقدر ما تهبه لك رؤيته عن قرب.

# بوح عاشق لنسائه العشر

حمود بن سالم السيابي

هذه ليست ارتحالات لمدن محددة، بل مراودات عاشق لمدن محددة. وقد حمل العاشق لمدنه العشر أو لنسائه العشر الكحل والبخور والحناء والحرير والخلاخيل.

وككل العشاق الذين يتسللون إلى خدر الحبيبات اختار العاشق الاستاذ محمد بن سيف الرحبي أن يتسلل إلى موسكو عبر (قلب) المدينة ليقف وحوله الكرملين بقبابه الملونة كأقراط صبية تتأمل جمالها على صفحة نهر (موسكفا) وأمامه لينين يعيد تشكيل دولة القياصرة بأشعار بوشكين وتوليستوي وروايات دستوفسكي وميخائيل بولغاكوف .

ووقف العاشق الرحبي في حضرة حوريته الرمادية العينين كثلج سيبيريا، والذهبية الشعر كصولجان نيقولا الثاني، والقرمزية الشفتين ككرز الصيف تعرض للزوار الكافيار والكهرمان، فقد جاء مرتحلا إلى عينيها ليبثها لواعج شوقه، وليتركها ومعه قصائد عشق تحرق قلوب قراء ارتحالاته .

وفي رحلة الإياب من أهداب الحبيبة ورعشة شفتيها كان الرحبي منصفا للحبيبة حين تعمد إغفال الحديث عن موسكو كعاصمة - أولى مكرر- لدولة العالم.

وكان متسقا مع نفسه حين تجاهل التطرق لهيمنتها مع واشنطن على الكرة الأرضية. وكان موفقا

وهو يفسح لها لتهيمن على قلبه ومشاعره فقط دون أن يزايد على مشايخه المقريزي وابن بطوطة وياقوت الحموي في وصفهم للمدن، ودون أن يزاحمهم إلى سوق النشر إذا ما فكروا بطبعات جديدة لـ«معجم البلدان» و«تحفة النظار في غرائب الأمصار» و«عجائب الأسفار والسلوك لمعرفة دول الملوك» فأمامهم الفرص قائمة ليسهبوا في الحديث عن دولة بعظمة روسيا القيصرية، وعن قطب بحجم الدولة البلشفية، وعن دولة بطموحات العودة للقيصر بوتين الذي يدسّ يده في اللهب السوري ليحرق الأخضر واليابس بحجة تدعيم خط الصمود في وجه إسرائيل رغم أن قيام إسرائيل هو أحد نجاحات الصناعة الروسية.

وحين همّ الرحبي بمغادرة خدر حبيبته موسكو، تركها عند ضفة النهر دون أن يقوى على مشاركتها العزف على الجيتار لترنيمة بحيرة البجع، أو يستفتح بالبيانو كسارة البندق .

**

ولأن أسفار الرحبي مراودات عشق وهيام فكان من الطبيعي أن يكون دخوله تونس عبر بوابة بيت نزار «يا تونس الخضراء جئت عاشقا" فقد حمل الرحبي لتونس وردة وكتابا وقلبا أخضر، وافترش في سفح الزيتون سجادته ليؤدي «صلوات في هيكل الحب « ومعه الشابي وسولاف.

ورغم أن تونس أيقونة ربيع العرب التي أحرقت البوعزيزي أو احترقت بالبوعزيزي، ورغم أنها عمقنا الممتد من جامع الشواذنة إلى جزيرة جربة إلا أن الرحبي اختار الكتابة عن الشط التونسي الذي يتنفس أوروبا، وانحاز لعناق الموج يعزف الراب المغاربي في سوسة والحمامات ليستدعي العصافير والفراشات والنوارس من ضفتي المتوسط، تاركا جربة والجعبيري لباحثي معاهد العلوم الإسلامية والقضاء.

**

وفي مراودته لزنجبار على خطى النساء العشر، لم يجد ما يحمله لها، فكان كل شيء لديها، فارتاد المخدع عاشقا ومعشوقا، واكتفى بتتبع الدروب التي تشعشع قرنفلا وصهيلا وزغاريد، وتحسس الروازن المزحومة بأمشاط العاج والأبنوس . وزار الشوانب ليخاتل العشاق الذين سبقوه إلى المتوني وبيت العجائب والواوتورو وبيت الساحل وكيزمباني .

ومر بالنخل التي شهدت ولادة «تلك البوارق حاديهن مرنان» وتنفس أحبار مطبعة خليفة بن حارب ورائحة ورق النجاح والفلق، وارتاد الفرضاني حيث سلطانة والمجيدي والرحماني تغزل الموج بين القارات لتعطي للبحر استحقاقاته الزرقاء، تاركا لوجع السقوط وعبيد كرومي والمذابح وجواهر تاج جمشيد من أن يتناوله آخرون بمداد التاريخ وطحالب الجغرافيا.

**

وحين حملته الخطوات إلى بوروندي كان ليتتبع رائحة القرنفل وما إذا كان بمقدورها أن تعبر القارة السمراء إلى الغرب حيث يزرع البروندیون البن، وليتتبع الزحف العماني باتجاه البحيرات العظمى حيث العماني هناك ينشر المآذن لتطاول أشجار الدوم، وحيث أحفاد الفاتحين يضيئون مجاهل القارة السوداء بخناجرهم وعمائمهم .

**

ولم تكن زيارة الهند بمعزل عن الجغرافيا العاطفية للعاشق الرحبي فقد ذهب لبلاد جاست بمباضع أطبائها خلال الأجساد، واقترب حكماؤها بسماعاتهم ليقيسوا دقات قلوب العمانيين بعد أن فشلت سماعة طومس في تشخيص الداء ووصف الدواء، قبل أن يسلم العمانيون أجسادهم وأمراضهم ووساوسهم تايلند وأوروبا .

ولعل العاشق الرحبي أحب (هند طاغور) وهند المهاتما وهند مروج العود التي تشرب من الجانج والسند وبراهما بوترا، تاركا لفتوح البلدان قياس أطوال الأنهار، وإلى أنيس منصور الحديث عن الهند التي تمتص الأوكسجين من الهواء، وإلى الخبراء رصد عدد وقوة التفجيرات النووية التي تجريها تحت الأرض وقوتها في سياق سباقها التسليحي مع باكستان وحرب الأعصاب التي تهدر فيها مليارات الروبيات في شبه القارة الهندية .

**

وكانت سيرلانكا التي تغشّاها الرحبي هي كالهند تمشي ومعها الأبقار والفيلة وصبايا الساري فانحاز العاشق لسرنديب التي كانت ملجأ للمنفيين العرب بأوامر من بريطانيا العظمى، تاركا الجزيرة التي تتشظى على نيران وصواريخ التاميل لفضائيات العرب تحتشد لتجعل من نشراتها الإخبارية مائدة موت أسود .

**

وفي الشرق الأقصى حيث تستعجل الشمس البزوغ تصغر في عيوننا أندونيسيا التي تصدر لنا الشغالات، وتعظم في عيوننا ونحن نصافح رجالها بطرابيشهم السوداء في الحرمين يملأون مكة والمدينة .

ويحل الرحبي ضيفا على جاكرتا بلاد الروائي (بوتو ويجايا) والروائية (آيو أوتامي) فيختال في المكان الذي تعمد بالحبر، تاركا (بالي) تتلألأ لأثرياء العالم وقمم جبال جاكرتا تعج بالسياح العمانيين والخليجيين .

**

أما جورجيا كآخر تقليعات السياحة الخليجية فهي الفناء الخلفي للسوفييت، وقد اقتطعها مقص

البيرسترويكا لميخائيل جورباتشوف ففضلت السياحة على البقاء في حزام البلاشفة، وقد تغشاها الرحبي عاشقا وممهدا للسياحة العمانية فأدار ظهره لتتبع موقع جورجيا في القوقاز ونصيبها من تداعيات الحرب الباردة بين البلاشفة والناتو، فاختار التأمل تحت نافذة الأوبرا يقرأ قصيدة (لشوتا روستافيلي) عن الحب والمواعدة وضجر الإنتظار .

**

أما طهران التي فرشت لعاشقها أهدابها وسجادها العجمي واستقبلته في المطار بـ»خوش أمديد» وأطعمته الفستق وأسياخ الشيش طاووق فقد دعته تحت عمامة الولي الفقيه لينوح ويطبر ويسبح بحمد انغماسها في الدم والايديولوجيا، إلا أن العاشق الرحبي فضل مراودتها في (نيافران) ليتأمل لوحة للشهبانو محاطة بوريثي عرش (قورش). وتابع الرحبي الإيرانيين الذين يشاركونه متعة التأمل للوحة رديئة في الرسم واستثنائية في الرمزية التي تحملها من حنين دافق للأمس وشوق ملتهب للأيام الخوالي .

إلا أن الرحبي فضّل الجلوس تحت تمثال شاعر يستمتع برباعيات الخيام من أن يتبرك بالعمائم السوداء التي تستدعي التاريخ من السقيفة إلى سقوط بغداد مرورا بحرب الثمان سنوات وسيف ذي الفقار في صفين والنهروان والطف والسبي وقادسية ابن الوقاص.

**

وأخيرا فإن بابل الجنائن المعلقة كانت آخر مراتع العاشق حين لبى دعوة شعر ليوشوش أذن الحبيبة بقصيدة على (تفعيلة) خرير فلج الحيلي، وقد ترك لدجلة والفرات أن ينسابا بكلماتهما ويسقيا النخل وحقول الحنطة ويفيضا بها إلى الأهوار وشط العرب .

وكان دخول العاشق الرحبي لبابل عبر بوابة عشتار، وكان المرور بنخيل تطاول مسلة حمورابي ورمح نبوخذ نصر .

وبينما العراق يتقاتل ويحز بسيفي الحسين ويزيد رقاب أناس لا يعرفون الحسين ولا يزيد، ويتجادلون حول صدام والقادسية الثانية وشموخ صدام وهو على عرش المشنقة .

ولكي ينسحب العاشق الرحبي من صخب المشهد العراقي العبثي فضّل أن يعلي صوت هاتفه على رائعة الرحابنة وفيروز:

بغـــــداد والشـــــعراء والصـــــور
ذهـــــب الزمـــــان وضوعـــــه العطـــر
بغـــــداد هـــــل مجـــــد ورائعـــــة
مـــــا كـــــان منـــــك إليهمـــــا ســـفر
أنـــــا لوعـــــة الشـــــعراء غربتهـــم
وشـــــجي مـــــا نظمـــــوا ومـــــا نثـــروا

**

ولعل هذا البوح الذي احتواه الألبوم الوردي للعاشق الرحبي في نسائه العشر، ومدنه الثمان، يستمد قيمته من كونه لم يخط بحبر، بل كتب بمزيج من الكحل والحناء وفتيت المسك على جدار قلوب نسائه العشر، فجاء البوح صادقا دافئا جريئا. ولعله لم يسبق أن كتب عن بعض النساء العشر، أو نشر عنهن بين دفتي كتاب، وإن تناثرت حروف هنا أو هناك فمن المؤكد أنها ليست بهذا البذخ، فالعاشق الرحبي كان يلبس نساءه العشر بيديه الأقراط والخلاخيل والقلائد والدماليج، ويصطحبهن إلى الأنهار والشطوط، ويواعدهن لأخذ صور لهن، وصور معهن، فجاء الألبوم الوردي الذي بين أيدينا ارتحالات إليهن، ومراودات لهن .

# موسكو..
# الثلج يأتي في الربيع

تأتينا المدن على غير موعد..

هل يحتاج العشق دوما إلى مواعيد؟!

هكذا أغرتني المدن بعشقها، وكأنها الأنثى المستحيلة، تكون المدينة حاضرة كأنها الأنثى، تكون الأنثى متوهجة لتبدو مدينة من الأحلام..

كأن في كل زاوية من شراييني تسكن مدينة، تتفنن المدن في إغوائي، كل واحدة هي أنثى، وعلينا أن نحدد موقفنا مسبقا فيما إذا أردنا الوقوع في الغرام أم نتعفف، لكن ليست كل النساء نستطيع معهن ممارسة غض النظر، كما أن هناك مدنا لا يمكنك إلا التورط في محبتها، سواء أكان قلبك على موعد مع فاتنته، أم أن المدن تنتظر القلوب لتسكنها، وعلى المسافر أن يتأكد من بوصلة قلبه قبل أن تتأكد موظفة المطار من صلاحية تأشيرة إقامته.

لا أدري ما الذي جعل موسكو إحدى المدن التي أدرجتها على خارطة أحلامي، وهي النائية عني بجغرافيتها وبأفكارها..

ولا أدرى أي حلم هذا الذي ساقني إليها على غير موعد، ألم أقل أن المدن لا تحتاج إلى مواعيد،

كما هو حال العشق دوما، يكون بالسمع أحيانا، فالأذن تعشق - كما قال شاعرنا القديم - قبل العين أحيانا، هكذا حزمت حقيبتي نحو موسكو، أحسست أنها عاشقة تنتظر.. هكذا يخّل لي كلما أقول مدينة أراها لأول مرة.. وأنها أنثى يثقل كاهلها البرد.. هكذا أدّعي حينما يتوهج حنيني لضفة أخرى أيمّم نحوها شطر الفؤاد.. وضعت كل ملابسي الثقيلة في حقيبة السفر، لممتها على عجلة من أمري، وهي التي حسبتني في غنى عنها، تخيلت أنني سأندس فيها حالما ستحاصرني المدينة ببردها.. حين يكون الدفء بيننا نكون أكثر اقترابا من بعضنا..

حينما أقول موسكو أشعر بالبرد، رغم أن مسقط كانت ترفع ترمومتر درجة الحرارة مقتربا من الثلاثين درجة مئوية.. كأنه الثلج يتساقط ندفا بيضاء فوق أخيلتي، البياض الذي أغرتنا بلعبته الشاشة، صغيرة كانت أم كبيرة.

## المدينة ترتدي قبعتها العسكرية

كانت موسكو حاضرة بثلوجها رغم حرائق السياسة.. أراه من مكمن ما داخلي الميدان الأحمر وقد زعقت فوق أحجاره أقدام العساكر تتابعهم عروش وممالك حول العالم تخشى من غضبة الدب إن كشّر عن أنيابه.

.. بريجنيف يخطب في الجموع الحاضرة تحت البرد القارس، يطلق رصاص كلماته، فتتلقف الدنيا صداها لتصيغ منها تحليلاتها وتوقعاتها.

..العواصف الثلجية التي تهبّ على فقراء تشيخوف وقد أنهكهم الجوع وموت الأحلام على الأرصفة المتجلّدة في ليل كأن لا آخر له.. وفي عطر الكلمات يضوي من قصائد بوشكين.

.. نابليون وقد قتل جنوده البرد والجوع، فضاع من يده حلم بناء امبراطورية يخلدها التاريخ.. ويخلده، هكذا تيبست مفاصل الحلم الهتلري، وغرزت أنياب الدبابات في البياض المتجمد، هكذا

يغدو الثلج حارسا أمينا للمدينة، يمنع عنها الغزاة والحالمين، ويتيح لها فرصة أن تحلم بغزو الحالمين من حولها، فالحياة إما حلم تسعى رصاصة لتغتاله، أو أنه رصاصة تجبن أن تغتال حلما.أشياء لا تحصى تتداعى على الجالس فوق مقعد طائرة يتخيّل، يواتيه الواقع بعد أن رسمه "ماكيتات" أولى طوال عقود حياته الماضية.

موسكو، يعرفها ولا يعرفها..

رآها في صور السياسة أكثر مما ينبغي.. وفي صور الإيديولوجيات المتصارعة، سقط الصرح العظيم الذي كان يهز العالم، تناثر كتمثال زجاجي بالغ الضخامة، فرح من فرح، وبكى من بكى، حين رأى العالم كفة الميزان تتهاوى، هكذا، كأنّ ما حدث جزء من دراما هزلية ساخرة، لم يكن سقوط دولة وتفتتّها، بل هناك أفكار وقيم وتنظيرات ونتائج وعشرات المفردات التي كان على العالم متابعتها ليفهم ما حدث.. ليستوعب، يجدّد تحالفاته، يعيد ترتيب أفكاره، وينظر للكفّة الباقية من الميزان.. وقد بقيت وحدها برمزية سريالية عصيّة على الفهم.

رآها تلك المدينة في حزام التاريخ.. يمر القياصرة أمام عينيه بغتة، ويرفع لينين قبعته، ويتمختر ستالين خيلاء، ويمضي جورباتشوف رافعا علم الجلاسنوست والبيروستريكا، وفي يد يلتسين نخب روسيا جديدة كوارثة شرعية لأمجاد الامبراطورية السوفيتية.. وعلى يد بوتين بدأ الحلم أن تكون دولة جديدة تحمل اسم روسيا.

رآها القوة الكفيلة ببقاء كفّة الميزان دون خلل، حين تصاب عاصمة نصف العالم بالزكام يعطس نصف الكرة الأرضية، تراكض القطبان نحو القمر، فيما انشغلت شعوب الأرض بالحفاظ على مكانها في كفة الميزان الذي تحسب عليه..

رآها في سباق الأسلحة المثير، حين يتسرب خبر من موسكو يغادر النوم ربابنة العالم، ويصاب ساكنو البيت الأبيض بصداع القلق، يرتدي نصف العالم سترة النجاة، ويرتدي نصفه الآخر خوذة الحرب.

إبتسامة برسم روسي

شارع إرباط

رآها في قصص التاريخ القريب، حين تتشاقى براغ بعيدا عن القبعة الحمراء يأتيها الرد حارقا، وعشرات الآلاف تدوسهم الدبابات السوفيتية التي لا تقبل سوى الطاعة، لا شيء سواها، إما طاعتي وطعامي، وإما عصياني وناري.

رآها في ألف مشهد ومشهد، جميعها تهب على الذاكرة كالريح الباردة التي يخشاها إن وضع قدميه في مطار موسكو، واستقبلته المدينة بذات الغربة الساكنة فيه..

## أشجار حزينة تنفض عنها الثلج

.. وحين أنزلت الطائرة أقدامها الدائرية كانت المدينة تلوّح بأيد باردة من خلف الأفق الممتد بلا نهاية، الغابات القريبة من المطار تقف بأشجار شبه عارية فوق سطح أبيض، بدا للمسافر أنها أفرشة من الملح الأبيض نثرت بيد متمهلة، أيكون الثلج هكذا؟ تلك هي فتنة المختلف، فتنة التخيّل.. وروعة الاكتشاف، ما تراه العين للمرة الأولى.. ما يحسه القلب في اللقاء الأول!

المضيفة تقول أن درجة الحرارة اثنتان، تتبادل العجوزان القريبتان من مقعدي إشارة من أصابعهما المتغضنة بذات الرقم، شعرت بدفء، قلت في نفسي أن ذلك أفضل من كلمة تحت الصفر، وقد شاهدت الثلج يفترش الأرض في الربيع.

موظفة المطار تبحث في جواز سفري عن شيء ما لم تخبرني عنه، كانت تتحدث مع نفسها بكلمات لا تفهم من وراء الزجاج الحاجز، تثيرها التأشيرة التي لم يلصق طرفها الأخير جيدا، وعلي، مسؤول العلاقات بالسفارة العمانية بموسكو ينتظر على مقربة يشير على المسافر أن يصبر عليها، وددت القول أن لا مفر من الصبر، هالة القوة أكاد ألمحها حتى في نساء هذه العاصمة القوية، عاصمة بوتين والذراع الملوّحة بالقوّة ضد القطب الواحد وبقية الأفلاك في المجرّة الأوروبية، تترصدني منظومة الصواريخ العابرة للقارات.. وللقلوب.

صافحت بوجهي فضاء المدينة..

للمرة الأولى أقابلها وجها لوجه..

أكرر، كل مدينة هي أنثى أقابلها للمرة الأولى، على جبيني ذات القلق، والرغبة في حجز الزمن بين العين والعين كي لا يمر.. شوارع وشوارع، عبرناها وانحرفنا عنها، سيارات في جدّتها دالّة على مستوى المكان، لا يوجد زحام خانق في ذلك المساء، ربما يكون في أوقات أخرى لم أهتد إليها بعد، إشارات مرور تتلوّن فيي، علي القادم إلى بلاد الروس منذ 21 سنة لا يزال في حديثه بقايا لهجته البدوية الساكنة فيه من بلاده سوريا، وفي لهجته أيضا ملامح من اللسان العماني لوجوده موظفا في السفارة العمانية نحو 12 عاما.

يلوح الميدان الأحمر بجمال لا تلغيه قسوة المتخيّل العابرة لعقود من القوة الجبارة، استكان بهدوء أخّاذ تحت ليل المدينة وربيعها البارد، من وراء زجاج السيارة كان البرد يحاول أن يتسلل، يقول للعابر أنا هنا، فاستعد لتقبلي ضيفا ثقيلا على جسدك أيها القادم من صحراءك الساخنة.

في المدينة عدد كبير من الصروح الثقافية التي حاصرتني برغبة السؤال عنها، مكتبات المدينة بدأت رحلة الحرية. فتحت كل أبواب المعرفة دون خشية من "بلبلة الأفكار" كما كانت النظرة الشيوعية إلى الكتابات القادمة من خارج المكان، الرأسمالية تسير بتوحش فوق شوارعها، لم تعد الحواجز، على اختلافها، باقية في عصر جعل من ثورة الاتصالات نقاط التقاء بكل الدنيا، 66 مليون مشترك في شبكات الهاتف النقال، اللافتات لم تعد غائبة عن مشهد الشارع اليومي، ليس عناك اختلاف بينها وأي مدينة أوروبية، هي موسكو، حارسة الثورة البلشفية، نسيت لينين وثورته، وغضّت الطرف عن أمجاد ستالين، أكثر من ثلاثة عقود تحت حكمه لكن المدينة لم تحتفظ من الصور القديمة إلا ما يؤكد رسوخ حجارتها، وقدرتها على العناد، مع أن اهتزازات التسعينيات كانت كافية لتجعل من روسيا بلدا قابلا للتفكك أكثر فأكثر، بلد ورث الكبرياء والعناد، أبقته روسيا في مزاجها الصلب.

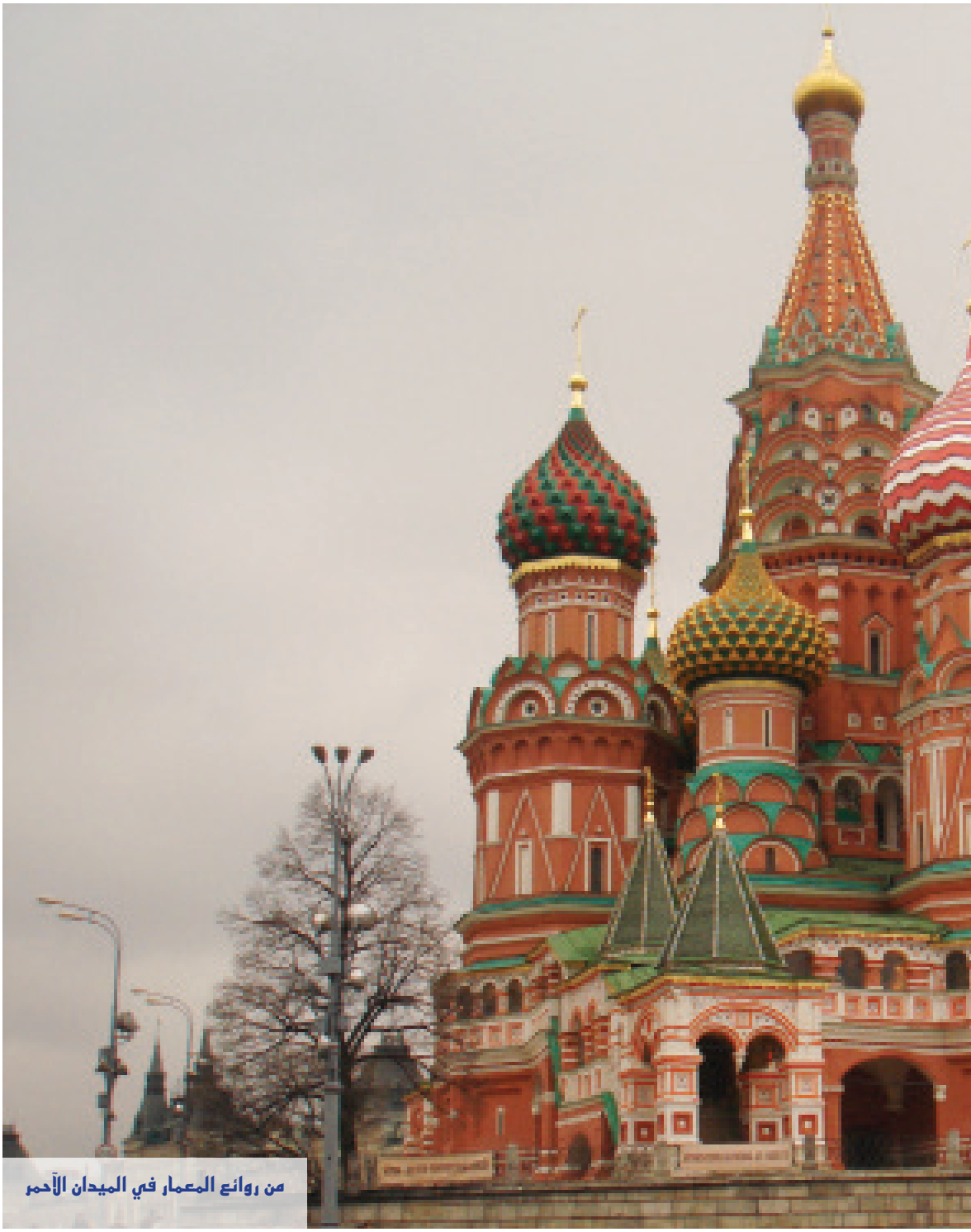

من روائع المعمار في الميدان الأحمر

## يسير على أقدامه دون جواز سفر

فكرت حين بان بياض صباح المدينة بالدخول في نزق شوارعها، الأرصفة كما تبدو من الشرفة مبتلّة بحبات مرمرية كأنها زجاج أبيض بالغ في الصغر، حين يعانق قسوة الأرض يتحول قطرة ماء بالغة التناهي، والتماهي.

سرت وحيدا إلا من نفسي، والمطر الأنيق يقطر بنعومة، له لون الثلج، على "الجاكيت" تتجمع حبات البلور الصغيرة، لها لذّة الرؤية، كلما زادت الكرات

البيضاء كثافة دخلت الروح إلى لذاذة أشد، متعة أن تسير في المختلف، برد وبرد، سكون الراء في الكلمة الأولى وفتحها في الثانية، تمتزج المفردتان لتبدوان قدرا جميلا لا يحتاج إلى مفردة دفء، حسناء تعبرني تغطي رأسها بحجاب مميز، لكن الساقين مكشوفان بما يكفي لإدهاش ربع رجال العالم على الأقل، السير الأول في شوارع المدينة، أي مدينة، له بهجته، التسكع الأنيق، أن تتعرف على مكوناتها، أن تحاول حصد بعض من يومياتها، أن تفهم لغتها دون ترجمة، يكفيك جرس اللغة لتشعر بالمعني، دق جرس كنيستها بغتة فذكرتني ببعض من ثقافتها، انتهى الشارع، علي أن أعود بأقدامي لتتبع خطواتها التي مرت قبل قليل، كان الماء مغو للخطوات، أضاعها في أسفلت الشارع، لكن الإشارات واضحة، والعلم العماني يرفرف على مقربة فوق بناية السفارة، تأملته بمحبة، وجعلته منارة أهتدي بها إلى المكان.

هي المدينة وقد أفسحت لي بعض أوراقها لعلني أجيد قراءة أبجديتها.موسكو، وقد أصبحت أغلى مدينة في العالم..

فاجأتني برأسماليتها العنيفة، باغتتني أنها لم تعد تنادي على الرفاق بما تيسر من رغيف خبز يتقاسمه سكانها معا.

لم يعد للرفاق مكان في عاصمة الرفاق كما كانت، قفز المئات إلى قائمة المليونيرات حيث الدرجات

العليا من الرأسمالية، وهبط الملايين إلى الدركات الدنيا .الفندق الصغير غرفته بمئات الدولارات، وأسعار السلع فوق المتخيل، أصبحت موسكو أغلى عاصمة في العالم، استقطبت أموالا طائلة للاستثمار، تحركت المياه التي كانت مجمدة في عصر الاشتراكية لتهدر تيارا يجرف أشياء لا تحصى، لم تأت المليارات فقط إلى روسيا، بل جاءت القوى العاملة من الدول التي كانت تتبع هذه العاصمة حين كانت قلب القطب الثاني في الميزان الدولي، في مطعم وضع الجمل شعاره كانت الوجوه مختلفة، يقال أن الروس لا يخدمون في المطاعم، إعتزازهم بأنفسهم لا يجعلهم يقبلون بخدمة الآخرين في أماكن كهذه.

شدّني اكتشاف آخر، لا حاجة لتنتظر السيارات ذات الشكل المميز والدال على أنها "تاكسي"، يكفي أن تقف على الشارع وتشير لأي سيارة، ستقف باستعداد تام لتنقلك، لكن عليك التفاوض مسبقا على الأجرة، وإلا فإن هناك مشكلة ما ستنتظرك.

رغبت باكتشاف آخر، مبرمج هذه المرة، سألني الصديق مانع الكثيري (السكرتير الأول بالسفارة العمانية في موسكو) إن كنت أخذت جواز سفري معي، أجبته بالنفي، فاجأني بالقول أنه من الضروري جدا أن يأخذ المرء جوازه معه ليكون في موقف جيد حين يوقفه رجل الأمن، الافتراض الآخر هو أخذه إلى السجن، تذكرت كم كنت محظوظا حين خرجت في صباح المدينة أتعرف عليها دون أن أحمل في جيبي سوى دولارات قليلة، طمأنني شخص آخر أن بعضا من تلك الدولارات القليلة سيقنع الشرطي بإخلاء سبيلك، أخذ موظف آخر في السفارة جواز سفري ليستخرج لي تصريح إقامة، سألته: والتأشيرة؟ أجاب أنها للدخول والخروج فقط، أما ما بينهما فيحتاج إلى ورقة أخرى.

## لينين غادر الميدان الأحمر

الميدان الأحمر متسع على الذكريات أكثر من اتساعه على الرؤية.. هي ساحة الكرملين، أو الساحة الحمراء، وكلمة كرملين تعني بالروسية القاعة أو الحصن، ويطلق الاسم على مركز موسكو القديم بمبانيه، ويحيط المكان جدار ضخم طوله نحو 60 قدما وارتفاعه ميلاً ونصف الميل، ويضم ضمن ما يضم

كاتدرائيتان يشتهران بألوانها البديعة وقبابهما الذهبية، ويوجد داخل مبنى الكرملين مدفع صب عام 1586م ويبلغ وزنه حوالي 40 طنا، وناقوس صنع عام 1735 يعد أضخم ناقوس في العالم فوزنه 25 طنا، يشير تاريخ المكان إلى أنه في القرن الخامس عشر أمر القيصر الروسي ايفان الثالث باستدعاء مهندسين معماريين من روسيا وإيطاليا لتجديد الكرملين، ولذا جاء البناء جامعا لفن العمارة الروسي والهندسة المعمارية الإيطالية في عصر النهضة.

من فوق جسر على نهر موسكو يغدو المنظر هائلا في جماليته، الكنيسة بعمران فائق الروعة تتابعها حكاية المعماري الذي دفع نور عينيه ثمنا لعظمة بنائه حتى لا يكرره في مكان آخر، يقابل الكنيسة برج الكرملين، تشير ساعته إلى تحرك الزمن من حولها كل يوم، لا تهتم ببقية التفاصيل التي يصنعها البشر، يبلغ قطر وجه الساعة نحو ستة امتار، وارتفاع الارقام يصل الى 72 سنتمتر، وطول عقارب الساعة حوالي ثلاثة امتار، اما عقارب الدقائق فطولها ثلاثة امتار و28 سنتمتر.

على بقية أضلع الساحة مبان تزيّن عظمة المكان وتجمّلها، على مقربة كانت دائرة في الأرض تشير على أنها مركز المدينة، يجد الناس فيها تفاؤلا حيث يقفون في وسطها ويرمون عملة نقدية للخلف، يأتي رجل طاعن في السن يأخذ العملات التي لها قيمة تصلح لتجتمع إلى بعضها البعض بسهولة، مؤلفة فيما بينها قيمة

رغيف خبز، كانت هناك المنصة التي عرفت شموخ لينين يلوّح للجماهير الزاحفة في الميدان، لم يعد لينين هناك، ولا الجماهير المأخوذة بقوة الكاريزما، يمر بشر لا يهتمون إلا بأخذ الصور التذكارية لما تبقّى من مجد غابر غاب عنه صنّاعه، في مواجهته استدارة مرتفعة، قيل أنها مشنقة أرسلت للموت، قبل عقود، أرواحا ودّعت أجسادا معلّقة من أعناقها، الحياة والموت في ذات الساحة، العظماء وضحاياهم، امعنت النظر فيما تبقى من دائرة المكان، تصبب حزن غريب في أعماق، حاولت جاهدا أن أهرب منه، لكن، كأن بكاء مرّا يأتي إليّ من خلف أسوار التاريخ يدعوني لسماعه.

أقف في دائرة يقال أنها قلب موسكو

الفنون التشكيلية في معرض مفتوح

## لينين.. لينين

في زوايا لا تحصى من المكان الموسكوفي يقف أثر ما للينين، أول رئيس للاتحاد السوفييتي، ومن رفع شعار "الأرض والخبز والسلام"، ولد لينين في 22 ابريل 1870 وتوفي 21 يناير 1924م، كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ضد الإمبراطورية الروسية حين كان يحكمها القياصرة، أسّس المذهب اللينيني السياسي، في نهاية أغسطس من عام 1918 وبعد أحد الاجتماعات كان يهم بركوب سيارته إلا أن صوت فتاة ناداه ليلتفت إليه، فاجأته الفتاة بثلاث رصاصات جعلته يخشى من التوجه حتى إلى المستشفى خوفا من يكون الراغبين في قتله ينتظرونه هناك، شفي من الطلقات النارية إلا أنها تركت أثرا خطيرا على صحته، فتوالت الجلطات الدموية عليه بدأت أولها في مايو من عام 1922 شلّت نصف جسمه الايمن، ثم الثانية في ديسمبر، وفي مارس من العام الذي يليه أصيب بالجلطة الثالثة أجبرته على البقاء في الفراش وحرمته من القدرة على الكلام..

وجاءت الرابعة والقاضية في 24 يناير 1924، وتشير المعلومات ألى أنه من بين الـ 27 طبيباً الذين اشرفوا على علاج لينين وقع ثمانية فقط على تقرير المشرحة الذي يقول ان سبب الوفاة كان تجلطا في الدم، ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، إتضح ان لينين مات موتاً مؤلماً وبطيئاً ووجد ما يشير إلى أنه كان مصابا بالزهري.

سرت فوق جسر آخر يربط ضفتي نهر موسكو، ثلاث أشجار، تبدو كذلك، زرعت في وسطه تحمل أقفالا لا عدّ لها، هو جسر العشاق، يأتون ليضعوا اسماءهم مع أسماء من يحبون ثم يغلقونها بقفل، تتدلّى الأقفال بقسوة لا تحتملها المشاعر، حتى العواطف تحتاج إلى قسوة الحديد لتبقيها عطرا يبوح به قلبين حلمهما خلود العشق في وجه البرودة.

من شوارع موسكو الشهيرة شارع أرباط، يقال أن تسميته جاءت من اللغة العربية الرباط، أي مربط الخيل، وقد كان الرحالة العرب يأتون إلى هذا المكان قديما، مشيت في الشارع الممتد والمتسع

على مبان ووجوه ومحلات تغري بالدخول، السير فيه متعة، على طرف منه يبدو مبنى وزارة الخارجية الروسية جميلا، المبنى المنطوي على أسرار وحقائق لها قيمتها حيث موسكو ليست كأية عاصمة.

## المنتصرون يرفعون قبعاتهم

ساحة النصر، العساكر الذين أصابوا مدن العالم بالدوار، هادئة صباحا، بضعةأشخاص يعبرون المكان بروية يقلقها الهواء البارد، النوافير نائمة، الألوان لا تقول حكاياتها، فوق النصب التذكاري العالي تطل التماثيل بأجنحة لها رمزيتها، النصب مرسوم بدقة تكاد لا تترك ثغرة دون أن يضع الفن بصمته عليها، للمكان هيبة لا يخذلها الطقس البارد، وللزمان إطلالة لا يلغيها السلام الدافىء.

المتحف قال الكثير من الحكايات، حكايات الحرب في زمن السلام، كأنه تولستوي يرشونا باندماج الكلمتين تحت سقف واحد لغلاف رواية، في الصور البليغة والبانورامية داخل المتحف الواسع رأيت ستالينجراد وليينجراد ومورسك تحترق، رأيت النار التي يذوب فيها الإنسان أسرع من الحديد والحجر، ورأيته الجنرال الروسي في يده العلم الأحمر يتسلمه ليرفع راية المنتصر فوق ما تبقى من برلين.. وقد سقطت، روعة في مزج المجسمات والأنفاق والرماد في خلفية المشهد حيث يلزم المرء تدقيقا ليعرف أيها التجسيد وأيها اللوحة الباسطة لقسوة الحرب في خلفية المكان؟!

مشهد النار كأنه حاضرا في الحرب، وكأنه الجمر يلتهب من الأشياء المحترقة..

في زوايا أخرى كان الجنرالات يعتمرون قبعاتهم العسكرية، آلاف الأسماء نقشت على اللوحات التذكارية، صور الأبطال المنتصرين تضج بالحياة، الدبابات كأنها تزحف عبر التاريخ قادمة مرة أخرى، كأن العالم لم يستوعب ما حدث في النصف الأول من قرنه الماضي. رحل أغلب صانعي النصر والهزيمة..

بقي التاريخ وحده يومئ من بعيد، حفظ في مدوناته تاريخ القياصرة والجنرالات والزعماء، وفي

مفكرته أيضا ملايين من البسطاء الذين ماتوا، ببهجة النصر أو بذل الهزيمة، ماتوا لأن هناك حرب، لا بد من فحم لها.. فكن البسطاء وقودها الأكثر قدرة على الاشعال والاشتعال.

قبل أن أغادر الساحة كانت سيارة تقف وبجانبها مظلات كأنها أكشاك بيع مشروبات، كان اللون الأحمر صارخا برأسماليته، "الكوكا كولا" كأنها اختارت المكان عن قصد، هي العولمة، فقدان الأيديولوجيات لحدّية انفعالاتها، فسحة "البيزنس" أن يزيح أشد ما يمكننا تصوّره رسوخا، خلّفت عربات الكوكا كولا، وساحة النصر، وصور الجنرالات، ورائحة البارود، والحسناوات، وصولا إلى دفء توفره السيارة الأمريكية التي كانت تنتظر.

## الهضاب .. والجامعة.. والبنايات السبع

وقفت فوق هضاب لينين، اسم شهير في موسكو، كان الباعة يفرشون بضاعتهم، مزيج من تذكارات وكماليات صغيرة تغري بالشراء، يطلّ المكان من عل على جزء كبير من العاصمة، هناك النهر يسير كما شاء له القدر أن يسير، الهواء البارد يصفع أجسادنا، تتيبّس المفاصل حتى أن الأصابع تكاد لا تستطيع كتابة رسالة نصية على الهاتف النقال، لكن للمكان سحره، التأمل فتنة العابر، والمدينة تغريه بالحديث إليها، والحسناوات يعبرن العابر وكأنه غير حاضر في وجودها، يكاد أن يقول تريّثن، ففي القوام كثير حسن، وفي العيون سحر، وفي القلوب رهافة متوزعة على جمال البشر والحجر.

على الناصية الأخرى تقف جامعة موسكو، إحدى البنايات السبع التي بناها لينين، أو بالأحرى بنتها أيادي الأسرى الألمان، هي أعرق الجامعات، ليس على مستوى روسيا بل عالميا أيضا، تأسست عام 1755 م، ويدرس فيها أكثر من سبعة آلاف طالب دراسات عليا ونحو 40 الف طالب وطالبة، وموظفيها نحو 15 الف، وتستقطب من الطلبة الأجانب نحو الفي طالب سنوي، ويتواجد عادة فيها نحو خمسة آلاف متخصص وباحث، وتنال شهاداتها اعترافا من غالبية دول العالم.

تمثال لينين في الميدان الأحمر

## 120 ألف تحفة تحت سقف واحد

كان يوما حافلا بالفن، بدأ بمتحف تريتياكوف، أمام شباك التذاكر، وبعد أن دفع مرافقي 200 روبل قيمة تذكرتي دخول أطالت موظفة التذاكر نظراتها في وجهي متفحصة، تتحقق أنني لا أنتمي لهذا البلد، بالميلاد أو التجنس، سالت رفيق المشوار إن كنت روسيا، انتبهت إلى أن الواجب يحتم دفع تذكرة الزائر الأجنبي، كانت 250 روبلا لي، ومائة روبل لزميلي الروسي/السوري.

120 الف قطعة فنية يضمها المتحف الكبير، يحتاج المرء إلى شهر لو أراد الوقوف دقيقة أمام كل لوحة وتحفة فنية، يصاب المرء بالدوار من كل تلك الجماليات المتوجّب على ذهنه استيعابها، على روحه تذوقها.. وعلى جسده التجلّد لتحمّل السير والوقوف والصعود من سلم لآخر من أجل متعة يبدو وصفها بسيطا إزاء تلك الصور المنثالة دفئا وجمالا، لا تكفي المفردات لكتابة الإحساس بالتجلّي أمام عظمة الإبداع الإنساني من الفنون، عشرات الآلاف من اللوحات على العين أن تراها بسرعة قبل أن تتمكّن من أسر القلب فيتألق مجبرا الجسد على الوقوف، رؤى الريشة وقد أذهلها الكون بأحلامه، بآلامه، بانتصارات المحاربين وانكساراتهم، جنرال بشوارب مفتولة، ودموع تكاد اللوحة أن تتركها تتساقط من الإطار، جداريات ضخمة لمعارك وصلوات وتقاسيم حياة، مشاهد إنسانية مكتوبة بحبر الرؤيا، أمّ تنتظر، طفل يكاد ينطق اللوحة بصفاء نظراته، شكلت المعروضات تاريخا أمينا لواقع الحياة الروسية خلال القرون الثلاثة الماضية، مؤرشفة مشاهد الحياة الإنسانية البسيطة، والأحداث المحورية في تاريخ روسيا، القاعات الأولى ضمّت مئات اللوحات "البورتريه" لفنانين وموسيقيين وكتاب ومفكرين وفلاسفة، هناك تماثيل نصفية من المرمر لمبدعين أثروا الحياة الروسية فنا وفلسفة وشعرا..

ثم كان المقصد ضفة النهر حيث الفنانين يعرضون إبداعاتهم، حملت في كفّي رؤية بسيطة للمكان، رسمتها بهدوء في خارطة رغباتي، لم أحدس بما يمكن أن أراه.

البرد يجمّد ما يستطيعه من الأجساد السائرة بجوار النهر، كانت الالتفاتات واسعة لرؤية ما يمكن أن تقتنصه العين فتسجله على حافة الروح ذكرى من مدينة لها يومياتها ومزاجها، مصنع الشيكولاتة يبعث في الفضاء أدخنته فتبدو في الطقس البارد سحبا تخرج من أنبوبين ضخمين يعلوان سطح المصنع.

كان البحار العظيم يطل من ارتفاعه المذهل، يقف بطرس الأول بحذائه الضخم فوق سفينة مثلت رمزا لما أنجزه، أنشأ أول اسطول بحري في روسيا، التمثال من أهم معالم موسكو، حين يلتقي ضلعي النهر يشمخ التمثال الكبير لهذا القبطان، تحت الشمس المشرقة تركناه يقف، كان المكان متجليّا بعظمة وهيبة التاريخ الموسكوفي، كان مقصدنا ضفة أخرى من النهر، بعض البياض تركه الثلج الهاطل قبل ساعات، لنحو مئات الأمتار امتدّ ممشى يحيطه من الجانبين رافعات حديدية للعرض، كان الاكتشاف مذهلا، كل ذلك الامتداد يتضمن معرضا مفتوحا للفنون التشكيلية، آلاف اللوحات تعرض في الإتساع المكشوف للمكان، الفنانون يعرضون إبداعاتهم، معارض صغيرة متراصّة، بعضها آثر الاحتجاب كون أن اليوم ليس إجازة، أغلبها تضمن لوحات عدة، كل ما تتخيّله النفس من إبداعات تتعلق بالرسم، مدارس حاضرة بقوة الفن وجمال الإبداع، لوحات على قدر كبير من الحرفيّة تتراوح قيمتها بين مئات الدولارات وآلافها، النظر لا يكفي وحده،الإحساس هو الرفيق الأمثل للنظر في تلك الموجودات الرائقة.

لكن الطقس حافل بالمفاجآت، خلال نصف ساعة لم تعد الشمس تسكب أشعّتها مقبّلة تلك الإبداعات كما يحلو لها، بدأت ندف الثلج تتساقط صغيرة، طارت روحي اشتياقا لرؤية حلمية في أن أسير تحت الثلج، أن أشبه أحد أبطال تشيخوف يسيرون في موسكو تحت وطء الثلج والبرد، تحركت العدسة لرصد عشق الروح، كانت الندف الثلجية تكبر، ازداد بياض المكان، كبرت لعبة الحلم داخلي، لم أعد قادرا على الوقوف أمام الكاميرا لالتقاط الصور، كانت قطع الثلج تضرب الوجه بقسوة، كأنها تقول للعابر خذ ما تشتهي من حلمك القديم، هاهي الأرض لوحة بيضاء، واللوحات الجميلة تكاد تنكّس رأسها خجلا من تأنق الطبيعة بفستان زفافها الأبيض، والنهر يعبر بمياه تبدو كأنها

محطات المترو..إبداع هائل تحت الأرض

صور الجنرالات وقادةالجيوش

كأنها الحرب مازالت مستعرة

الدفء في ذلك الطقس الجليدي، قال مرافقي أنه في الشتاء يمكن السير على النهر، قشرته تتجمد بعمق 30 سم تقريبا، يمشي الماء المختفي تحت جليديته كأنه يضن على البشر برؤية الماء في طقس تبدو فيه أطراف المرء كأنها ليست له.

## حياة تحت الأرض.. في الأنفاق

قال مانع الكثيري أن من زار موسكو لم يجرب مترو الأنفاق فيها فكأنه لم يزرها، ورغم ما في القول من مبالغة إلا أن متعة الاكتشاف لازمة، ربما لا يتصور سكان العاصمة حياتهم دون مترو الانفاق هذا، هو متحف، رمز تاريخي، عنصر هام في صياغة الحياة اليومية لسكان موسكو وزوارها، وتكفي معرفة أن عدد مستخدميه يبلغون عشرة ملايين راكب يوميا، أي 300 مليون راكب في الشهر!!

كان لا بد من التعرف على وجه مهم من وجوه المدينة، حملت بعضا من رؤيتي للمكان أحاول بها تصوّر قدر من الجمال الذي ينتظرني، مترو أنفاق موسكو، المكان الذي يقال أنه متحف تحت الأرض، لكن ما اكتشفته بعيد عن تصورات المخيلة، وقفت في طرف السلم الكهربائي فرأيته هابطا إلى ما يشبه الحفرة العميقة جدا، تصورت أن كلمة "بئر" في حياتنا تغدو مفردة صغيرة أمام هذا العمق، لا يمكن تصور أن يكون تحت كل هذه المسافة في باطن الأرض ملايين البشر يتنقلون يوميا، وعشرات المحطات التي تعد كل واحدة منهن تحفة فنية، كلمة تحفة تبدو بسيطة (أيضا) في الوصف إزاء تلك الروعة العمرانية لكل محطة، لا تتشابه أي محطة مع الأخرى، المحطة تقف لوحدها لوحة راقية دالة على ملامح ما من التاريخ الروسي، قديمه وحديثه، كأن هذه المحطة لا يوجد سواها في خارطة شبكة المترو، عندما ترى غيرها تنسى الأولى وجمالها منشغلا بروعة الأخرى.. الأعمدة والجدران والأسقف والرخام واللوحات والتماثيل والثريات المعلقة والأضواء، جميعها مشغولة بفن مبهر، تنسى أيضا أنك تحت عمق نحو 150 متر حيث تسير المدينة وكأن لا شيء أسفلها.. كأن ملايين البشر في شوارعها ومبانيها لا يبالون بالإبداع ، لكنها كافية لإعطاء درس في فنون الجمال للسائر.. أول مرة.. لم يشغلني ما يشغل الآخرين، لهم اتجاهاتهم ولي اتجاه واحد، هو قراءة ما أمكن من تلك الروائع، مغادرة محطة

والهبوط إلى أخرى، تاركا لآلاف العابرين مهمة السير نحو مقاصدهم، ولروحي متعة الرحيل باتجاه جماليات المكان.

الوجوه قد لا تحفل بتلك الجماليات، في حياتها ما هو أهم، رغيف الخبز والأجور وغلاء المعيشة، ما يفيد الفن إن كان البطن يشتكي الجوع.. لم أشاهد جائعا، لكن الحياة الباهظة التكاليف للمدينة والوجوه الجامدة المرهقة جعلتني أتصور أن كل هذا الجمال غدا متكررا وفاقدا لتأثيره الروحي على الذين يكادون لا ينظرون إليه.. أبدو وسط تلك الجموع الراكضة كائنا غريبا يقترب من الحيطان ليرى إبداعات الرخام عليها، وفي الأسقف ليكتشف أي فن هذا المرسوم في كل زوايا السقف الطويل للمحطة، كأن تلك الجموع كائنات متكاثرة تحت الأرض، وأن لا علاقة لها بمن هناك فوق السطح.

تشير المعلومات إلى أن مترو الأنفاق في موسكو تأسس في بدايات القرن العشرين، ففي عام 1901 وضع مهندس يدعى انطونوفيتس لبنة الخطط لبناء المترو لكن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أجلت المشروع حتى ثلاثينيات القرن الماضي حين جندت كل البلاد السوفيتية عبر نحو 500 مؤسسة وشركة وظهر أول نفق للمترو عام 1931 في حي يسمى روساكوفسكوي ليتواصل العمل ليل نهار حتى عام 1935 والذي شهد فتح 13 محطة أبوابها لأول خط للمترو قام بحمل الركاب، وشهدت فترة الخمسينيات ذروة العمل في المترو، ويبلغ طول خطوطه 260 كيلومتر تضم 540 درجا كهربائيا بطول 55 كيلومترا، ورغم أنه الرابع بالنسبة لأرقامه القياسية إلا أنه الأول في عدد الذين ينقلهم يوميا، وهو يعد الأرخص للسكان كوسيلة نقل آمنة ومضمونة.. وموفرة للوقت.

وفي أيام الحروب لعبت محطات المترو دورا حيويا في التاريخ الروسي، كان ستالين يعقد اجتماعاته في إحدى محطاته، وخلال الحرب العالمية الثانية، ومع نهاية عام 1941 تحولت محطاته إلى ملاجئ، وعرباته إلى مستشفيات متنقلة، وفي بعضها عمل الصنّاع ليل نهار على إنتاج أسلحة وذخائر ترسل إلى جبهات القتال، وبينها من كان مراكز للمؤسسات، سواء المدنية أو العسكرية، واحتضن بعضها اجتماعات قيادة العسكرية العليا لجيوش الاتحاد السوفييتي.

أمام قوة التاريخ وقسوته. ومع متطلبات العصر وانفتاحه. لا يكف مترو أنفاق موسكو عن التمدد لإيصال طول خطوطه الى 420 كيلومتر، والتي ستنقل نحو 4،5 مليار شخص سنويا.

## جامعة روسيا للصداقة.. بتتكلم عربي

موعد في جامعة روسيا للصداقة بين الشعوب، موعد له استثنائيته، ساقتني أقداري إلى الحفل السنوي للطلبة العرب، كانت الخشبة والقاعة وأغلب الوجوه «بتتكلم عربي»، تضج القاعة كلما ورد اسم فلسطين والقدس، وتصفق حين تأتي بيروت، وحين تحضر بغداد.. وحين.. وحين.. وحين..

هكذا هي آلام العرب، حاضرة في قلوب شبابها، مذيع الحفل المرتدي للكوفية الفلسطينية، الاستكشات المسرحية التي استحضرت شهيد فلسطين وإرهاب العراق.. الدبكات التي جاءت من كل بلاد الشام، من فلسطين ولبنان والاردن وسوريا، لكن عندما حضرت الدبكة العراقية كانت تتحدث باللغة الكردية، ورفع بين الحضور علم كردستان، وقبل أن ينتبه منظمو الحفل رفع إلى جانبه علم العراق، لكن كان لا بد من إبعاد السياسة عن بهجة الحفل.لم يكن الحفل سوداويا بحضور تلك الآلام دفعة واحدة.. الدبكات حرّكت الماء الراكد في الحضور المتألق.. وكذلك فعلت صوفيا، الطالبة الروسية التي قدمت وصلات من الرقص الشرقي، ولا أروع، منفردة كانت أو مع رفيقاتها من الدارسات في قسم الرقص المخصص في الجامعة لكل رقصات الشعوب.. ما أجملها المشاركة الروسية في حفل العرب، جميلة ومبهجة.. وتقدم أفضل ما يحبون.

## داتشا لكل مواطن

الساعات الأخيرة في موسكو حافلة بالاكتشاف.من غرفتي رأيت الثلج ينهمر ببياضه، ما أروع أن ترى الثلج بينما يقبع جسدك وراء زجاج يحتمي من برودة الطقس بدفء المكان.

مهابة الزمن القديم حاضرة في المعمار

أعين حائرة أمام آقفال الحب

هكذا أتفقت مع صاحبها علي شعبان، المهاجر السوري الذي استوطن موسكو واختار شريكة حياته منها، لديه ولدين: حبيب وكريم، لكنهما لا يعرفان شيئا من لغة والدهما العربية، هوايتهما جمع الحشرات، كانت العائلة رفيقتنا إلى الداتشا.

سرنا نحو 50 كيلومتر تحت المطر والثلج، قبل أن نصل أغرتنا بحيرة بالتوقف عندها، سطحها الأبيض متألق بلونه الرائع، نحو مئات الأمتار كانت أشباح سوداء تجلس فوق سطح البحيرة المتجمد يصيدون الأسماك عبر ثقب في البياض وصولا إلى الماء المندسّ تحت قشرته البيضاء السميكة، لم نغامر بالاقتراب منهما، خشيت فخا من الثلج، ما أسوأ أن ينصب البياض فخاخه الباردة، بما لا طاقة للتكهن بمدى السقوط .الداتشا هي قطعة أرض مساحتها 800 متر في المتوسط، وزّعت في عهد الاتحاد السوفيتي، وعلى المواطنين لزراعتها بما يحقق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، حاليا أصبحت أشبه باستراحات تبدو فيها المساكن الصغيرة متباينة، ودالّة على الثراء الذي يتمتع به صاحبها، أكواخ خشبية بائسة أو فيلا جميلة لا يلغي حجمها الصغير أناقتها.

اقتربنا من الغابة الواقفة بأشجارها العارية، حتى قاماتها كانت تحمل آثار البرد، بينما تكون الثلج فوق جذورها بسمك لا يدل على أن الفصل ربيع، كانت الأسوار الخشبية تفصل الداتشات عن بعضها البعض، الحوش بياض، وفي الداخل كانت الفطائر اللذيذة مع الشاي الساخن بانتظارنا، اشتعلت المدفأة بما ألقي إلى حلقها من صحف لتتوقد بجمرها، في الجزء الأعلى من الكوخ كانت الأفرشة وطقم الجلوس تنتظر إطلالة على المكان في خارجه، كل شيء من الخشب، جذوع الأشجار الضخمة تغطيها الأخشاب من الخارج والداخل، وتوضع قطع الاسفنج بين الجذوع وقطعة الخشب لعزل البرودة الخارجية عن الوصول إلى داخل المكان.

حط الثلج كثيرا فوق كتف المسافر. من زجاج المطار لوّح للثلج، لوّح له البياض، وحتى الرؤية الأخيرة من خلال نافذة الطائرة أصرّ على أن يلوّح بيده للمدينة.. المتصالحة مع بردها وثلجها.

باعة الارصفة رغم البرد

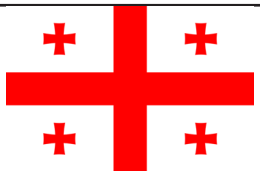

# جورجيا..
# لؤلؤة القوقاز

قبل أن يحين موعد سفري إلى جورجيا كان السؤال يلحّ من ألسن شتى: كيف اخترت هذه البلاد؟ ما الذي حفّزك للترحال صوبها، حيث اللغة حاجز كبير، والجغرافيا غامضة, والعلائق مع ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي لم تزل تلقي بإرثها على هذه الدولة التي خرجت من رحم «المحور الشيوعي» بعملية قيصرية سالت بسببها الكثير من الدماء، والأكثر من الضغائن.

شخصيا.. لا أعرف جورجيا، ولكنني اعرف شيفارنادزه..

لم أسمع عنها بما يكفي لأعرفها، إلا في العامين الأخيرين، لكن شيفارنازه كان الحاضر الدائم في سماوات الإعلام خلال أكثر من عقدين..

كانت جورجيا بقعة صغيرة تسبح في تيار الاتحاد السوفييتي الهائل، وكان آخر رجل تولى حقيبة وزارة الخارجية السوفييتية الرجل الذي وضع بصمته في جورجيا، البلد الذي غامر بالانفصال دون أن ينتظر الانهيار الكامل للدب بعد أن هبتّ عليه رياح الجلاسنوست والبيروستريكا كما سوّقها آخر الرؤساء السوفييت، جورباتشوف، فتفتت الاتحاد الهائل إلى دول عانت التبعية القسرية، وكان من ضمن الذين خرجوا من عباءته.. جورجيا.

شيفارنازه ثاني رئيس منتخب، قاد بلاده بعد أن أطيح بأول رئيس انتخب في جورجيا إثر انفصالها عام 1991، مناضلا من أجل إنهاء الحرب الأهلية في بلاده، عاد إلى بلاده عام 1992 وسط الحرب المستعرة، وتداعيات الانهيار الهائلة..

وقيام الدول مرة أخرى بعد انمحاء الحدود وتداخل القوميات أمر يلزمه أنهار من الدم لتستقر البلدان.. ولو قليلا.

أقول أعرف شيفارنادزه لأنه كان نجم الإعلام، فبعد أن برز في أهم مرحلة من مراحل الاتحاد السوفييتي، وكانت فيها الانهيارات تتداعى، كان نجما في بلاده، خاض انتخابات عام 2000 ونجح فيها، لكنه خرج من الرئاسة بعد أن قاد معارضوه ما سمي بـ»ثورة الزهور"، إذ تبيّن عدم نزاهة الانتخابات، قاد الثورة كل من ميخائيل ساكاشفيلي وزوراب جفانياونينو بورجانادزه، وهم أعضاء سابقون وقادة في حزب شيفرنادزه الحاكم، وهكذا خرج الرجل ذو الشعر الأبيض من معركته مع التاريخ، وانتخب ساكاشفيلي رئيسا لجورجيا في عام 2004.

بعد نحو عشر سنوات من ذلك الخروج (السياسي) غادر هذا الرجل الدنيا، عن 86 عاما، بعد صراع طويل مع المرض، وهو الذي عرف من الصراعات ما لا يحصى، فهو أحد مهندسي الحرب الباردة مع «الرفيق» ميخائيل جورباتشوف، لكن الزمن له شروطه القاسية وهو لا يعرف التوقف. ذهب الاتحاد السوفييتي، وذهب شيفارنادزه.. وبقيت جورجيا.

جورجيا واحدة من بلدان ما كان يعرف بأوروبا الشرقية، أو المواليد الجدد على خصر القارة العجوز، وكان لا بد من احتضانهم ليتخلصوا من الإرث الشيوعي انطلاقا نحو مباديء الرأسمالية، والأهم استعادة الإنسان لحقه في الحرية، حرية الفكر أو الحرية الاقتصادية، خاصة أن علاقتها مع روسيا ظلت متوترة بسبب الشيشان، ووجود قواعد عسكرية «روسية» من ميراث الاتحاد السوفييتي، بما أبقى الجراح مفتوحة مع الجار الروسي.

تاريخ عبر من هنا، فوق هضاب بالغة الجمال، وهائلة المعنى، في لفتة ترى الحسن في البشر والشجر والحجر.

بعد أن هدأت أصابع الديناميت في مستعمرات «الاشتراكية»، وتراجع رصاص الحدود بين المنفصلين والانفصاليين، بدأت الدول (التي كانت ضمن أو تدور في فلك ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي» سابقا) في السير نحو مصالحها العليا، متخلّية، قدر إمكانها وإمكانياتها، عن مغامرات تزيدها بؤسا، وتعيدها للوراء سنوات ضوئية.

في عام 2004 أقر البرلمان الجورجي العلم القديم لجورجيا، العائد إلى العصور الوسطى وعصور جورجيا الذهبيّة، أحيا فكرة العودة إليه التيار الوطني الجورجي عام 1990، وأيّدته غالبية الجورجيين، ويعود إصله إلى التقاليد المسيحية التي تُعّد القديس جرجس شفيع وراعي جورجيا، والتي اتخذت لاحقًا صليب القديس جرجس في القرن الخامس من خلال الملك الجورجي فاختانغ جورجازالي بإعتباره رمزًا للدولة وأمته، وفي القرن الثالث عشر استخدمت الملكة تمار من جورجيا علم القديس جرجس أثناء حملتها ضد الأتراك السلاجقة، ثم أضيف في وقت لاحق صلبان القدس الأربعة من قبل الملك جورج الخامس الذي طرد المغول من جورجيا عام 1334. سقط العلم الجورجي القديم مع ضم جورجيا إلى اللأراضي الروسية، وإلغاء النظام الملكي فيها، لكن تم إحياء العلم من قبل التيار الوطني الجورجي في سنة 1990، وأيّدته غالبيّة الجورجيين، بما في ذلك بطريرك الكنيسة الجورجية الرسولية الأرثوذكسية إيليا الثاني كاثوليكوس، استعادة علم جورجيا الذي يعود إلى العصور الوسطى وعصور جورجيا الذهبيّة. وأخيرًا اعتمد العلم من قبل البرلمان الجورجي في 14 كانون الثاني 2004.

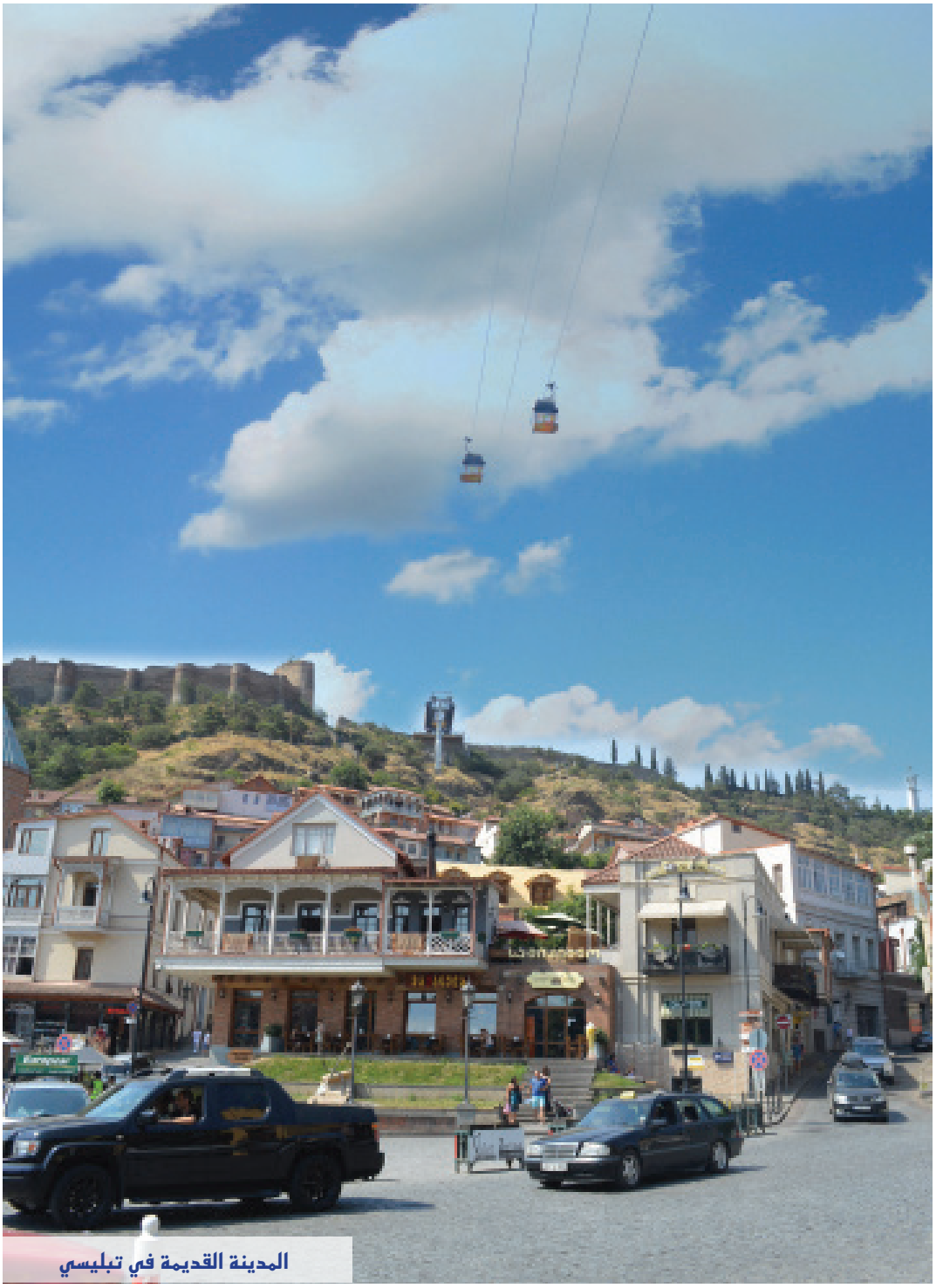

المدينة القديمة في تبليسي

## عقارب الساعة تشير إلى مسقط

.. وهكذا حدثتني نفسي بزيارة بلد منها، وكانت جورجيا الواجهة الابرز أمامي، متخذا منالتاريخ مرجعا، ومن خبرات سياح سابقين مطمعا، وكلما قلت أنني انوي على تبليسي يقول البعض أنهما زاروها، أو جاءوا منها للتو، وتواصلت مع أصدقاء في دول مجاورة فقالوا أنهم سمعوا بمن سار إليها، هذا العام أو الأعوام الماضية.

خفّف ذلك من غلواء التساؤلات عن سبب اختياري لها، إذ أن كل يوم يمضي من الزمن الفاصل بين الحجز والسفر أكتشف أن هناك من سبقني، وهناك من وطّن نفسه على السفر إليها، فلن أكون وحيدا في السير صوب مجهول، وفق التصورات السابقة، ولم تكذب شركة الطيران الخبر «كما يقال»، فقد كانت الطائرة «تتكلم عربي» أو بالأحرى «اللهجة الخليجية»، فتراجع قلقي من زيارة بلد لا تتحدث ما نعرفه من لغتين، العربية والانجليزية، وبلد كانت شيوعية في هواها السياسي، تجاهد لتقديم نفسها على أنها بلد سياحي، وهي جديرة بأن تكون مستحقة للقبها «لؤلؤة القوقاز».

لكن مطار تبليسي كان سخيّا في تعامله، وبسيطا حدّ انتهاء الإجراءات في دقائق معدودة، ولم تكن علينا مهمة المرور عبر التأشيرة، كأنهم يريدون للمال السياحي أن يأتي إلى بلادهم بردا وسلاما، خاصة من البلدان المعروفة بسمعة سيّاحها.. كعمان.

بدأت علاقتي بالمدينة بضبط ساعة الصبر على معصم السفر، حيث المفاجآت متوقعة، بدءا من سائق سيارة الأجرة الذي استفاد من ورقة المائة دولار لياخذها كلها في مشوار ربع الساعة الفاصل بين المطار والفندق، والمفاجأة الأخرى بمستوى فندق الإقامة، المصنف على موقع الحجز أنه من ذوي النجمات الأربع، فإذا به لا يزيد عن نجمة ونصف النجمة، وهذا ما أيدني فيه السائق وهو يصرّ بيده على المائة دولار، على اعتبار أن الفندق «نصّاب» وهو بريء!.لم نضطر إلى تغيير الأرقام على وقع حركة عقارب الساعات في معاصمنا، فتبليسي على ذات التوقيت مع مسقط، لكن شمسها تغرب متأخرة، ويأتيها الليل

أقصر لكنه كاف لتلك المتعة البصرية، حينما وقفت على أقدم جسورها في المدينة القديمة، وأمامي جسر آخر للمشاة، تحفة معمارية مصاغة بجمالية معاصرة تحتها يسير نهر كورا بتؤدة، وحينما تتحرك الأضواء في الجسر تزيد من فتنة المعمار الهندسي فيه، وأعلاه يسير التليفريك ناقلا البشر فوق الماء والمنازل، حتى الجبل، باخضرار أشجاره والمطر القليل الذي يزيد من فرط الدهشة بليل مدينة تختلف عن مدن أوروبية أخرى ولو قليلا، أنها لا زالت بمسافة عن المدنيّة الصاخبة.

في ساحة واسعة كان الماء يتراقص على وقع الموسيقى، وباعة ينثرون بضاعتهم الطفولية، وهناك من يقدم خدمات السيارات الكهربائية، يسيرون بين مسطحات خضراء وحركة حياة باذخة بجمال الأماسي ونسائمه، وحسناوات يجمّلن الليل،بذلك الجمال القوقازي الناعم, على الضفة الأخرى من النهر ارتفاع جبلي كأنه حائط، فوقه كنيسة قديمة، وتمثال أول حاكم اكتشف مدينة الينابيع الحارة التي تعنيها كلمة تبليسي، ومنازل بشرفات كانت المرشدة السياحية، الصبيّة الحسناء، على المركب السائر فوق الماء تخبرنا عن حسناوات كن يعملن في تلك البيوت المطلّة على النهر، لكنهن يترقبن أعين عشاق تتوق إليهن وهم يسبحون في النهر، ليكونوا خطّابا يقرعون أبواب منازلهن..

## موسيقى وماء.. وحسن

الموسيقي الجورجية التقليدية تأخذنا في مسامات المساء، نوتة الضوء ترقص أيضا على صفحات الماء، والعازف بلباسه التقليدي يضع لونا خاصا على اللوحة، كما هي العربات العابرة من فوقنا، وجمالية قصر الرئيس تطل من عل، وبناية يسمونها ببناية المشروم لأنها محاطة بمظلات تشبه نبات الفطر، مع أنها بناية إدارية لتقديم خدمات من نوع رخص القيادة والبطاقات الشخصية وجوازات السفر.. وغيرها.

والمفارقة أن سيارات المدينة تعمل على نظامين في موقع قيادتها، يمينا أو يسارا، وتمضي بهدوء لا تسمع الضجيج المتوقع في مدينة صغيرة يسكنها مليون ونصف المليون شخص، بنظام سير يحترمه السائرون، وللمشاة حقوقهم، في تخصيص أماكن للمشي أمامهم أو الأنفاق لعبور

جمال مكتوب بالماء والجسور

الشرفات التى تطل على النهر

إطلالة على امتداد أخضر

مدينة محاطة بالماء

الشوارع، وليس كما يحدث في عواصم أخرى حيث يكون «الحق على المرحوم» الذي دهسته سيارة وهو يسير على الرصيف، أو يحاول عبور شارع لا يحفظ له حقه.

كان الباص المفتوح يشق طريقه في دروب المدينة القديمة، مطاعم ومقاهي وشرفات منازل، وتحرسها من فوق قلاع وكنائس، وتمثال عملاق مصنوع من الألمنيوم لامرأة هي «أم كارتلي» تحمل في يدها وعاء، وفي الأخرى سيفا، يقال أن طوله يبلغ 20 مترا، شيّد عام 1958 على قمة جبل في منطقة «سولولاكي»أحد أحياء العاصمة تبليسي بمناسبة مرور 1500 عام على تأسيس المدينة، رمز أمومي أنيق يقول للزائر إذا جئت بسلام فلك التحية، أو السيف في يدي لأدافع عن بلادي إن جئت عدوا.

من على الجبل ترى تبليسي جميلة نهارا، وأجمل ليلا، من إطلالة بجوار التمثال ترى النهر يمضي تحت أقدام المدينة، والمعالم الجميلة الأخرى أبرزها جسر السلام بين ضفتي النهر، والمعالم التاريخية القديمة، مع الصروح الحديثة من بينها المعرض الفني الذي يتخد شكل اسطوانتين عملاقتين.

على الضفة الأخرى من ذلك المرتفع تكتشف أن غابة مبهرة تمتد بجمالها الأخضر كأنها تختبيء عن المدينة، وفي الممشى وفق ذلك العلو تجد باعة العصائر والمثلجات، وشاب يعزف على آلته الموسيقية، وصبيّة معه تجمع النقود المعدنية، وستجد فتنة المساء حيث تبليسي تودع يوما عاكسة لحظة الغروب على سطح النهر المتماوج مع مشاعرك، وحيث الضوء لا يكاد ينسحب عن تمثال المرأة الجورجية، يشرف على المدينة، والسيف في يد الأنثى / الأم له معنى أكثر وقعا، مما لو حمله رجل.

على البعد يمكن رؤية ساحة الحرية، بتمثالها النحاسي اللامع، الفارس الذي يهوي برمحه على الكائن الذي يمثل الشر / العدو، أو ربما ما يمكن أن ينال من حرية البلاد، التماثيل

تتكاثر في المدينة، وتمثل حالة معروفة في بلدان كهذه تحتفي برموزها من خلال تماثيل تذكّر المارة بهم عبر جريان السنين، هؤلاء الذين تركوا بصمة حضارية يستحقون بعدها التكريم بهذه الطريقة الفنية الجميلة.

كان بحثنا الدائم، البحث العربي، عن المطاعم العربية، أو التركية، كملاذ يمكن الركون إليه في وجبات الطعام، وتتوفر بقلّة تجعل أسعارها مرتفعة مقارنة بالأكلات الجورجية التقليدية، لكن الناس لم تعتد «الأجانب» ليذوب الجليد بين أبناء البلاد والغرباء بما يكفي للقبول بالسياح، والابتسام في وجوههم، والصبر على عبور الحاجز اللغوي.

## كنائس.. ومحلات صرافة

مضت بنا جولة سياحية على معالم المدينة الدينية، الكنائس الكبرى التي تقع في العاصمة أو القريبة منها، كانت مفاجأة لم نخترها، ولم نفطن إلى أن «ماساخيتا» تعني جولة في أبرز دور العبادة القديمة، وتتناول تاريخ المسيحية في جورجيا.

على النهر تتعدد الجسور، والاتجاهات، وملامح الشعوب القاصدة لاكتشاف هذه المدينة وهي تخلع رداء الأمس متحررة نحو خياراتها العصرية، ولأنها، كما يبدو، وضعت السياحة ركيزة أساسية في مشروعها الاقتصادي لتجاوز ضعف مقوماتها الأخرى القابلة لضخ المليارات في دخلها الوطني فإن ملامح الاهتمام بالسياح كبير، فأينما يممت وجهك تجد ملمحا يدعو السائح إلى التعرف عليه، التمازج بين قديم تحافظ عليه حيث الأبنية الأثرية من قلاع وكنائس، والحديث الذي تعتني برفع صروحه كأمكنة الترفيه والساحات العامة بحيويتها وجماليتها، إضافة إلى توفر ما يحتاجه السائح من مقومات، تبدأ من عملية تغيير العملة (ولم اشاهد في حياتي مدينة بهكذا محلات صرافة) وماكينات الصرف، وما أكثرها، مع احترام كبير من الناس العاديين، قبل أن يكون من رجل الشرطة وهو يحجز الطريق أحيانا لنتمكن من عبور الشارع،

ولا اكثر من المسارات التي تحترم البشر، ففي الساحات هناك احترام للخصوصية، وترفيه للصغار والكبار، دون شعور السائح أنه في بلد يراقب أفعاله.

اقترحت علينا شركة تسيّر خدمة الباص المفتوح أن هناك عرضا آخر لزيارة مدينة تسمى ماساخيتا، وقالت لنا الفتاة بابتسامة قليلة الحدوث على أفواهم أنها مكان جميل، ولأننا نبتغي رؤية الجمال وافقناها على اقتراحها..

وكان المشوار على غير ما ابتغينا، فلكل قوم مزاجاتهم وثقافاتهم وديانتهم، ولا اجد نفسي وأنا أتأمل كنيسة قديمة بنيت كأول دخول للمسيحية إلى جورجيا، إلا من خلال تأمل ذلك المنظر ونحن نشرف من تلة عالية على مساحة هائلة من الجمال، النهر والخضرة والوجوه الحسنة، والمدينة التي تتمدد بحسنها كأنما هي لوحة أمامنا.

كان الباعة يجلسون على جانبي الطريق في كل مشوار، ومن كنيسة إلى تاليتها، كلما قلنا أن هذه هي الأخيرة اكتشفنا أنها ليست كذلك، ولأنه ينطقها باللغة الجورجية ولا نعرف أين الاسم من الفعل فلم نعرف في أي كنيسة كنا، ندخل بذلك الاحترام لديانة سماوية، وبتلك المحبة للسيد المسيح عليه السلام، وتلك القداسة للسيدة مريم العذراء، نتأمل النقوش والصلوات التي يؤديها البعض بسكينة التعبد، إلى خالق واحد أحد.

في إحدى الكنائس كانت العرائس يخرجن بفساتين الزفاف بكامل أناقتهن وحسنهن.. جئن طلبا للبركة، رغم الانفتاح الهائل في الحياة الجورجية إلا أن البشر لا غنى لهم عن الجانب الروحاني اللازم في مسيرة حياة ملأى بالمتناقضات و(الفحش) المادي.

والذين يبيعون التذكارات يتوزعون نسخا متشابهة، بقرب الكنائس، أو سائر الأمكنة السياحية، باعتبار أن دور العبادة القديمة اصبحت مزارات سياحية، أكثر من كونها دينية، وتبدو الحلويات الجورجية بأشكالها الطولية حيث هي مزيج من الحلوى والمكسرات، وكما

من الكنائس القديمة

شبهها أحدهم أنها «سنكرز» جورجي، كما تعرض العرائس بالزي التقليدي.أطلق العرب على جورجيا قديما بلاد الكرج، وارتبط انتشار الإسلام فيها بانتشاره في بلاد ما سمّي أرض الرحاب التي تحدّها شمالا، والرحاب عند الجغرافين العرب اصطلاح يشمل أذربيجان وأرمنيا وأران، وبدأت أولى المحاولات لدخول الإسلام إلى «أرض الرحاب» في عهد عمر بن الخطاب، وفي عهد الخليفة الرابع عثمان بن عفان وصلت إليهم غزوة حبيب بن مسلمة الفهري، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان أرسل إليهم حاتم بن النعمان، وأرسل إليهم عبد الملك بن مروان محمد بن مروان والذي شهدت مرحلته الطويلة تثبيت الإسلام فيها، حيث قضي على غزو الروم والخزر لمنطقة الرحاب.

من العهد العباسي حتى العهد العثماني، كما يشير سيد عبدالمجيد بكر في كتابه الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، والذي يشير أيضا إلى أنه "في عهد العباسيين أطلق على المنطقة اسم الثغور لمواجهتها للروم. وقاد الخلفاء العباسيين العديد من الحملات في صراعهم مع الروم، غير ان عنصراً وطنياً ظهر بين مسلمي هذه المنطقة، فتولت أسرة البطارقة حكم معظم منطقة الرحاب بما فيها جورجيا، واعترفت الدولة العباسية بأمارة هذه الأسرة الوطنية المسلمة، ومكث حكم البطارقة حتي جاء الغزو السلجوقي، فبسط الأتراك السلاجقة نفوذهم على منطقة الرحاب في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وقد دعم حكمهم الإسلام بالمنطقة وظل حكم السلاجقة حتي اجتاح الغزو المغولي وماحولها وتعرضت منطقة الرحاب والرحاب للتدمير" كما يورد أنه اعتنق المغول الإسلام ازدهرت الدعوة بالبلاد، لكن بعد ضعفهم تقاسم السيطرة على جورجيا كل من الأتراك العثمانيون والفرس والداغستان، وبعد ضعف الامبراطورية العثمانية أعلن قياصرة روسيا التدخل وأعلنوا الحماية على بلاد القفقاس واعلنوا ضمها إليهم في سنة (1198هـ - 1784 م)، ثم أعلنوا ضمها إليهم في (1225 هـ 1800- م) بعد حرب خاضتها روسيا ضد العثمانيين والشيشان والداغستان في سنة (1346 هـ - 1922 م).

ويتبع المسلمون في جورجيا، والتي تتراوح نسبتهم بين 10 بالمائة و30 بالمائة (حسب مصدرين مختلفين)، الإدارة الدينية لمسلمي القوفاز ومركزها بأذربيجان.

## باتومي.. مدينة يحبّها البحر

الطريق بين العاصمة تبليسي ومدينة باتومي على البحر الأسود ما يقارب 400 كيلومتر من المتعة البصرية؛ الجبال المكسوة بالأشجار، والأنهار الصغيرة تسيل فتنة بين القرى المتناثرة كثمار شجرة على تلك الامتدادات.. ساعات من السير على طريق ضيق ترى الحسن يسير معك.. باعة الفواكه والتذكارات الخزفية وجرار العسل.. والحقول المترامية باشجار التفاح وسائر الأشجار المثمرة من خوخ ومشمش.. وانواع الخضروات التي تزيّن الارض بركة.

وكان الباعة يرسمون تشكيلات من بضاعتهم حتى وهم يضعون البطيخ بلونيه الأخضر والأصفر تحت ينبوع الماء البارد؛ .. وكأنه موسم البطيخ (الجح)، يتكاثر باعته على الشوارع، لكن أحدهم شدني كثيرا، كان النبع يشق سفح جبل، وبجواره تكدست عشرات من الثمار، وضع بعضها تحت مصب الماء لتبرد، وكم كان طعمها لذيذا، وباردا، ويكفي أصغرها لأكثر من عشرة أشخاص.

تمر بعض الشوارع بين عناق الأشجار العملاقة من على الجانبين فتظلل الدرب على السائرين؛ تبدو اللوحة مدهشة لأنها تمتد مسافات إثر مسافات؛ ولعدة كيلومترات.. فيما العين تتنقل كالقلب بين الضفتين تشرب من اللون الأخضر.

منازل صغيرة تندس بين الاشجار على سفوح الجبال فتغبط الساكن فيها.. إنما هي فتنة الاختلاف.. ربما يشعر ساكنها بالملل.في تلك السهول الخضراء كانت قطعان البقر تتهادى بأريحية،حتى في الشوارع كأنما هناك اتفاق ثقة مع قائدي السيارات الذين يثقون بأن البقرة لن تتحرك قيد أنملة وقد تسير على الخط الفاصل بين الاتجاهين. . والسيارة تعبر بجوارها بذات انطلاقتها دون إبطاء السرعة.. كانت الحقول ساحاتها الأثيرة ولا ينافسها فيها إلا قليل من الماعز والخنازير والبط.

امتدادات المياه العذبة

قطيع من الأبقار يمكنه قطع الطريق على الجسر، فيلزم السائقين فتح مجال بين أجسادها، للعبور، دونما أي انزعاج متبادل.. لا من الأبقار، ولا قائدي السيارات!

وكان السكان يبحثون عن برك الماء للسباحة واللجوء إليها من حرارة الصيف ودرجتها تتجاوز الثلاثين.. فيما كان أغلب الرجال يتخففون من ملابسهم بسبب الحر.. لكنهم يبقون مرتدين ما هو أكثر من النساء، ويبدو موضوع الحر مسألة نسبية؛ ويعدون درجة الحرارة في رقمها الخمسين ضربا من الخيال.. بينما درجة الحرارة معهم ربيعنا الجميل.

كم من الأنهار عبرنا فوق جسورها..

كم من الغابات امتدت بشموخ أشجارها، وكثافة التقاء الأغصان، كان السائق لا يكف عن اتخاذ المسارب نحو أمكنة جديدة كأنما يقول أنظروا هذه بلدي، دخلنا إلى كهف برومتيوس، بذات الفكرة التي عليها كهف الهوتة في السلطنة ومغارة جعيتا في لبنان، لكن طول الكهف الجورجي أكثر من كيلومتر بين تشكيلات ولوحات أبدعها الله على يد الطبيعة، ثم من داخل الكهف خرجنا بالقارب لتصافح أعيننا من جديد فتنة الاخضرار.

تعدّ باتومي عاصمة مقاطعة أجاريا في جورجيا، وهي مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها 150 الف تقريبا، وتجاور الحدود التركية حيث يمكن الوصول إلى المدن الواقعة في الجانب التركي خلال أقل من نصف ساعة.

المسافة الطويلة بين العاصمة تبليسي ومدينة باتومي تصبح مجرد نزهة جميلة حالما الوصول إلى هذه المدينة البحرية الأنيقة، بشاطئها الجميل، مساحة دافئة من المتعة البصرية، البحر ونداءات أصحاب السفن السياحية التي تمخر البحر الأسود، والدائرة العملاقة التي تقودك في حركتها لاكتشاف زرقة البحر واخضرار الجبل، والتلفريك الذي يصعد بك وقت طويلا إلى قمم الجبال البالغة الجمال، في باتومي وجدنا الحي العربي، حيث المطاعم القادمة من مطابخ

الشام، والمسجد، والعائلات العربية المتدفقة إلى ما تأكله تحت مسمى «حلال».

المقاهي على البحر، والأكشاك الصغيرة عامرة بالحيوية، رغم حاجز اللغة إلا أن السلعة وفق مفهوم العرض والطلب يمكنها أن تلجم الهوّة بين البائع والمشتري، بينما يمتد الساحل بحركته القادرة على ضبط النظام حيث لكل متجوّل مساحته، أكان يسير على قدميه أو على دراجة هوائية.. أو بوسائل حديثة أخرى.

مدن تتوالى، برجومي، كوتايسي، وغيرها من حسناوات لؤلؤة القوقاز، جبال تجاور روسيا فتكتسي قممها بالثلج، وجبال تبدو مسطحات تتخلص مما تبقى من جليد عليها، قبل أن يزحف الشتاء مرة أخرى، وتغدو ملاذا لمحبي التزلج، حينها تكون المرتفعات بيضاء مكتسية بفتنة أخرى، متنقلة بين اللونين الأبيض والأخضر.

## ستالين.. ولد هنا

قال السائق الجورجي أن ستالين ولد هنا، في هذه المدينة، غوري، كان ذلك في 18 ديسمبر 1878 (توفي في 5 مارس 1953)، يفتخر السائق بأن ستالين جورجي، فهو القائد الثاني للاتحاد السوفييتي ورئيس الوزراء (1941-1953)، ويعتبر المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفيتي، تشير المعلومات إلى أنه معروف بقسوته وقوته، وأنه قام بنقل الاتحاد السوفييتي من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي مما مكن الاتحاد السوفييتي من الانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية والصعود إلى مرتبة القوى العظمى.

في غوري يقع متحف ستالين، تخليدا لهذا القيادي المهم في خارطة الزعامات العالمية، يحتوي المتحف متعلقات من الحقبة الستالينية، وفي عام 2008 اتجهت النية إلى إزالته لارتباطه بالحقبة السوفييتية، وتزامنا مع الحرب الروسية الجورجية عام 2008، لكن الحكومة تراجعت عن قرارها عام 2012.

وُلد ستالين لأب يعمل إسكافيا، وأم تعمل فلاحة، وسط عائلة تعيش وضعا اجتماعيا يدعى القنانة وهو حالة من الرق أو العبودية، ستالين ترتيبه الثالث بين أخوته وتوفي أخويه في مرحلة الطفولة نتيجةً للأمراض، فأرادته أمه كاهنا شكرا لله الذي نجّاه من الموت.

ومضت رحلة ستالين، ومعناه بالروسي (الرجل الحديدي) ويقال أن لينين هو الذي أطلقه عليه بعد أن قضى على أحد القياصرة بقنبلة يدوية حولت القصر إلى أشلاء وذهب إلى عمله كصبّاع كأنما شيئا لم يكن، كما أطلق عليه الغربيين لقب العم جو، وسمّاه أنصاره أبي الشعوب، وقال عنه ونستون تشرشل، صديقه المقرب: «ستالين استلم روسيا مجراف زراعي وتركها بسلاح ذري .. حتى انا الذي تربيت في مجلس البرلمان لم كان ارفض لة طلبا"، وقال عنه شارل ديغول: "لقد تمتع ستالين بهيبة ونفوذ واحترام كبيرين ليس فقط داخل روسيا بل حتى من اعدائه»، كما قال عنه تشي جيفارا: "أقسمت امام صورة ستالين ناعيا اياة انني لن يهدأ لي بال حتى ارى أخطبوطات الراسمالية قد دمرت".

من معالم باتومي الشهيرة

# طهران..

## مدينة تتنفس عصرين

في طهران كل شيء متاح أمام طوفان التفكير وهو يمضي في اجترار الأمس واستدعاء الغد.. وما بينهما فجوة الحاضر إذ له متطلباته الصعبة وتوقعاته الأصعب، السياسة الحاضرة بستارتها الثقيلة أمام تجلّي على الروح وهي تطلب ابياتا لمولانا جلال الدين الرومي.. ومقاطع من شاهنامة الفردوسي.. وبكائيات على دم الحسين.. وكربلائيات محضبة بالحزن والدمع.

الأمس البعيد يطل من نوافذ زمن الفتنة.. وكأن الأمس القريب يسير في حدائق عرش الطاووس حيث (الشاهنشاه) محمد رضا بهلوي يغالب العمائم للحفاظ على عرشه أمام زلزال لا تحركه قم وحدها، وتتبدل حكومات، وتتساقط أمام طوفان شارع أراد التغيير.

يحاول التاريخ الاستيقاظ في مخيلتي وأمامي لوحة مطار مسقط تكتب بحروف الاستعجال طهران، المدينة الحاضرة بقسوة التاريخ وقوة الجغرافيا، أمام منحنيات العواصف تعبر المنطقة واحدة بعد أخرى، والتحذيرات من القادم أشد قسوة وقوة.

تأخر سفري إليها لكنني قرأتها آلاف المرات؛ وعيت على الدنيا وايران شرطي المنطقة.. وصولا إلى حاضر المطاردات العنيفة باسم الملف النووي.. وبينهما رحلة الدم لثماني سنوات مع جارتها العراق.. وهناك في بقاع عربية شتى تستحضر ايران؛ مع حزب الله في لبنان وحماس في غزة وبشار الأسد في

سوريا والحوثيين في اليمن؛ والعراق أصبح حديقة أمامية لا خلفية للحضور الإيراني.

اجتهدت لأعيد اكتشاف المدينة التي ألتقيها للمرة الأولى، ملقيا وراء اهتماماتي التحليلات السياسية ونشرات الإخبار وألسنة اهل السياسة وكتب التاريخ.. فقط استحضر العاصمة التي شغلت الدنيا، وشغلتني لأزورها، وهي القريبة من حدود الجغرافيا والتاريخ معا.

أريد اكتشاف المكان بقراءة لوحة اليوم بمنأى عن الأمس؛ بعيده وقريبه؛ أريد أن أرى المكان بشرا عاديون يمضون في رحلة حياتهم اليومية اليومية باحثين عن حاضر باسم الواقعية حيث رغيف الخبز له مكانته في الحسابات البشرية بما يفوق التخصيب النووي ونسبته المختلف عليها والحصار الذي لا يمكن تهوين تداعياته.

في اللوحة الفارسية ما هو أعمق لتراه عين السائح، الكلمات المتدفقة من لسان شاعر.. وفسيفساء ابدعتها أنامل فنان .. وسجادة عجمية يقف المرء امامها مذهولا كأنما الروح تسري بعدد غرزاتها.

هبطنا مطار الخوميني.. وقلنا لطهران خوش امديد؛ أهلا وسهلا بالمدينة التي لا تخلو من ذكرها نشرة أخبار ولا صفحات جريدة.. نريد أن نقرأ في حضورك آدابك وفنونك؛ وبيننا حمامات سلام تطير باطمئنان فوق مضيق هرمز وصولا إلى كل بقعة عرفت حضارة السلام بين بلدين جارين..جئنا ومعنا حروفنا المنقوشة ببياض النوايا لا صراخ الفضائيات وبائعي المواقف، سأمضي فقط في دفاتر ابداعاتك.. إنسان يبحث عن انسانيته في زمن مختلف.

كانت الصورة الذهنية المطبوعة في رأسي عن العاصمة الإيرانية طهران مطبوعة بحبر الآخرين، الذين زاروها فوصفوها، أو وفق مرئيات وسائل الإعلام، على تعدد وتباين أغراضها ومراميها.

مدينة توقعتها على وقع معاناة من الزحام والتلوث وتصادم العمائم في شوارعها لفرط المتدينين والمحافظين فيها، مدينة ترفع العصا في وجه العاصين للسلطة الدينية، والباسيج الذين يضربون الفتيات في الشوارع لأنهم لم يلتزمن بمباديء الثورة الإسلامية..

لكنني وجدت عاصمة مختلفة، أعدت قراءتها مرة أخرى بعيني اللتين لم تريا من العمائم أكثر مما نراه في أي عاصمة أخرى، بينما هناك بشر يعيشون بمدنيّة واسعة، وعلاقات بين الجنسين حيث يسير الشباب بمساواة وحرية، طالما بقيت الحرية ضمن عادات المجتمع وتقاليده، تماما كما يحدث في المجتمعات المحافظة.

كان زحامها معقولا، وتلوثها عادي، بما يكفي لاستدعاء صور الزحام والتلوث من عواصم أخرى تختنق بهذين المرضين العصريين، هناك نظام في السير، نظافة في الشوارع، هدوء على ألسنة الناس..

وبالنسبة لي متعة الاستماع إلى مفردات من اللغة العربية تنطق باللكنة الفارسية، كما هو الشأن مع اللغة الفارسية المكتوبة، نستطيع قراءتها، لكن المعنى يغيب في كثير من الأحيان، حتى مع تشابه في معاني بعض المفردات المشتركة بين اللغتين.

قبل أن التقي هذه المدينة اخبروني عن تلوثها وأنها عاصمة تزدحم فيها السيارات ويعلو صوت البكائيات كما هي المنابر الحسينية.. والعمائم الفارضة لثقافتها الدينية الصلبة.

وحينما التقيتها وجدتها بشالها الأخضر بعد أن اذابت الشمس عن قمم اشجارها حكايات الشتاء البيضاء والقارسة.. كان الثلج يكسو رأس الجبل بما يشبه حالة تخيل لبياض يمكن تأمله كتشكلات فنية حيث لا يمكننا استيعاب ان الثلج يبقى في الربيع.

كان الجبل يطل من البعيد بقمم تبدو كأنما لوحة رسمت عليها، قال أحد الزملاء أنه الثلج هناك، عددنا الأمر نكتة ليس وقتها صيف لم يكن يسمح بتصور جليد، لكن رحلة للجبل بواسطة التلفريككانت كفيلة بوضع اللوحة التي كان من الصعب تخيلها واقعا يمكن السير فوق جليده، والتقاط قطع الثلج بما يمكن تصويره بعدسات الهواتف فورا، وإرسالها إلى خارج الحدود، حيث درجة الحرارة في مسقط تلامس الأربعين.

نظرة على مستقبل ... وحياة

بياض الثلج يطل على المدينة

من نافذة غرفتي العالية في فندق ازادي كانت المدينة لوحة جميلة، أنيقة بما يكفي للإدهاش، وتأمل كل هذا الفضاء المفتوح، رغم أنف السياسة وأخبارها.

تشير المعلومات الجغرافية إلى أن العاصمة طهران تقع على خط عرض 35.41 شمالاً وعلى خط طول 51.25 شرقاً على السفوح الجنوبية لجبال البرز وتصعد أحيائها الراقية في شمال المدينة على الأقدام الجنوبية لجبال البرز، وتشير أحصائيات غير رسمية إلى أن عدد سكانها يقترب من عشرة ملايين نسمة، وتتركز فيها أكثر من نصف صناعات البلاد الأساسية مثل الصناعات الكهربائية والنسيج والسكر والاسمنت والكيميائيات، وتضم بنية ثقافية قوية حيث تنتشر فيها المتاحف والمسارح والمكتبات، كما تضم العديد من المساجد التاريخية وبعض الكنائس المسيحية، وباعتبارها العاصمة فإن تركيبتها من الطوائف والعرقيات معبرة عن سائر التراب الإيراني.

## في قصر الشاه

وجدت في أول صباحاتنا داخل المدينة ما لم أتوقعه، جولة سياحية أهدانا إياها مستضيفونا على غير توقع، وكان المكان مفاجأة مدهشة، لم أتخيل أن يأخذنا أحدهم صوب ما يذكّرهم بزمن الشاه، وما نعرفه عن الجمهورية أنها تتنفس زمنا مختلفا، بأيديولوجية أوسع اختلافا.

كانت البساتين باخضرارها تمنح المكان جمالا وكأنما رهبته اتخذت درب المنفى أيضا.. لاحقة سيد القصر .. الامبراطور، إذ يغادر عرش الطاووس في طريقه إلى خارج الوطن للمرة الأخيرة.. ومتخذا مساره إلى خارج الحياة بعد أن اوجعه المرضان: النفي والسرطان.. ومات بينهما مرة بعد مرة.

الامبراطور محمد رضا بهلوي غادر امبراطوريته، هبط عن عرشه، الشاه أو الشاهنشاه؛ خرج ولم يعد؛ سقط التاج تحت زحف العمائم وهي تتخذ من قم رسالتها ومن كربلاء مجدها لتغرس في بلاد فارس راياتها وتكتب فكرها بقومية سياسية وبامتزاج ثوري باسم الإسلام بما يفيض على

البلاد ويمكن توزيع صوته خارج الحدود.. ونقل سوطه إلى حيث يوجع آخرين.. باسم المذهب أو المقاومة حيث الطريق هي القدس.

اتخذت الدرب إلى داخل القصر تاركا فيضانات السياسة وأعاصيرها ورائي مرة أخرى، كأنما قدري مع السياسة أن تلاحقني في هذه المدينة، في شوارعها، ووراء كل حائط، حائط مسجد أو حائط قصر.

دخلنا مجمع القصور، بدأنا بقصر نيافراوان ويعني البساتين، أبنية أنيقة يضمها بستان ليس بالمبهر.. ولا القصور مبهرة .. لولا التحف التي تستمد قيمتها من تاريخها لا من فخامتها.. فيلل تبدو أفخم منها، فالغرف صغيرة وأسرّة نوم الاميرات لا تنطق بمكانة من توسّد مخداتها، ودورات المياه العادية الشبيهة بأي مكان مشابه في فيللا موظف متوسط الدخل.

دخلنا قصرا عمره 180 عاما .. وفيه تزوج محمد بهلوى الملكة المصرية فوزية) اخت الملك فاروق) وقد عادت إلى موطنها الأم حيث الزواج الملكي العاجز عن وضع السعادة في أرفف القلوب كما يفعل الامبراطور مع هداياه من التحف الثمينة.

وقفت متأملا سجادات القصر ولوحاته وهداياه، سجادة فارسية مساحتها 18 مترا رسم على حريرها صور نحو 109 من الملوك والرؤساء والسلاطين الذين مروا على التاريخ الايراني وفي قلبها صور أنبياء ورسل، وبين تخوم مملكة وأخرى عبرنا.. من الأواني المنقوش عليها صور العائلة النابليونية في فرنسا إلى زمن الدولة الاخمينية التي مرت ذات دهر على هذا التراب الفارسي.. كم من جداريات تروي مشاهد من الإمبراطورية الفرنسية كأنما القصر يحتاج إلى المزيد من تواريخ

القصور من زمن الشاه

سجادة عليها صور آنبياء ورسل وملوك

من لوحات القصر تظهر الملكة فرح وطفليها

امبراطوريات وشواهدها.. قال المترجم أنه من الغريب أن يحتفي الإيرانيون بذكرى مقتل عشرات الآلاف على أيدي اليهود في الزمن القديم.

وكانت لوحات الملكة فرحا ديبا تزين المكان كما كتبتها آلات التصوير أو أنامل الرسامين.. شموخ الإمبراطورة وبهاء الانثى.. هذه مرآتها حيث تجلس أمامها تضع كحلها قبل موعد حفلة تتوجها بألق حضورها.. وتختار عطرها بما يليق بملكة .. تختال فتدق بكعبها قلوب فتتعثر كلمات الإعجاب على السجادة الحريرية مخافة أن تسبق خطوات فرح.

غادر الإمبراطور القصر والمنفى والحياة.. وبقيت فرح فيمنفاها تغزل السنين والذكريات.. وربما خالجها حلم العودة الى غرفتها وإلى عرشها.. لكن الأحلام نائية والعمر ينأى أكثر وأكثر. وحينما كنا نغادر القصر وحكاياته التقينا ذلك الرجل الذي قتل والده العقيد في حرب ظفار؛ ويشعر أن العمانيين إخوانه لأن والده مدفون هناك..

وكم الهناك احتوت قبوره كثر.

وغادرنا القصر باتجاه مطعم لا تنسى لحظات الجلوس فيه، حيث تدخل تدخل الحديقة الغنّاء المشكّلة لمطعم تتوزع غرفه الزجاجية بين اخضرار الأشجار وألوان الورود وينابيع المياه المتدفقة، كأن المكان خيال خرج من لوحة للتو.

وكان المطبح الإيراني سخيا معنا، كما هي الواجهات في الشارع حيث باعة المكسرات، والفواكه المتنوعة، يرقبون زيّنا العماني بكثير من التأمل، بينما كنت أتأمل جرار الجوز المملوءة بالماء حيث تطفو ثمار الجوز كاملة بدون قشرها، طازجة، لكنها ليست بذلك السعر الرخيص الذي تخيلناه.

ي حضرة الرومي

كيف لشاعر أن يستوطن ذاكرة أمه كما فعل جلال الدين الرومي في بلاد فارس، وبما يشبه تأثير المتنبي في الشعر العربي.. شاعر «مختلف» عليه، لكن محبة عشاقه له لا اختلاف فيها، لأنه حديث الروح أينما حللت روحا في شعره.. هو لا يكتب القصيدة بل يخرج الكلمات عبقا من روحه

الشفيفة كأنما لا يتعمد الكتابة إنما يعزفها ناي قلبه فتأتي حانية مرات.. وموجوعة آلاف المرات. جلال الدين الرومي؛ مولانا؛ حيث أسير في معرض الكتاب بطهران استشعره في قلوب الايرانيين أكثر من كتبه التي سارت في أرجاء المعمورة بلغات شتى تاركا للبشر متعة الاختلاف حول تصنيفه هو العاشق اللاهف والذائب في سعيه إلى حبه الأكمل.. الله؛ من خلال شرحه لمعاناة الإنسان لبلوغ هذه القيمة العظيمة؛ وتجلى ذلك في كتابه مثنوي معنوي الذي يقدم هذه اللوحات الإنسانية المرهفة في 424 قصة في 25 ألف و 632 بيت شعر.

كم شاسعة المسافة في الرؤية بين من يتجسد الإحساس بقيم الحياة ومن يسلب الإنسان قيمته؟ الرومي الذي يجسد وحدة البشر:

تعال .. تعال
لا يهم من أنت، ولا إلى أي طريق تنتمي
تعال لايهم من تكون
عابر سبيل ..ناسك ..أو عاشق للحياة
تعال فلا مكان لليأس هنا
تعال حتى ان كنت أخللت بالتزامك وعهدك
ألف مرة
فقط تعال لنتكلم عن الله.

مع هذه النزعة الروحية هناك من اتهم الرومي بالكفر متخذا من رؤاه الفلسفية مدخلا إلى فهم جلال الدين وفق تصورات لا تتلاقى مع ملايين العشاق لهذا الذي جعل الكلمات سراجه لرؤية الله؛ بالقلب القادر على الحب لا النفس الداعية إلى الكراهية:

في الجنان سأرى عينيك
وفي عينيك سارى الجنان
فلماذا سانظر الى قمر آخر

أو شمس أخرى

فما سوف أراه سيكون كافيا لي.

الرومي؛ الذي ترك الدنيا الزائلة في القرن الثالث عشر للميلاد ليدفن في قونية ترك آثارا من رحلته في الحياة؛ وله مع شمس الدين التبريزي مسارا لا مجرد حكاية؛ واستلهمتها الكاتبة التركية اليف اشفاق في روايتها قواعد العشق الأربعون وما أعظمها من دلالات روحية حيث الإيمان بما لا يستطيع غالب البشر بلوغه لأنهم لا يدركون سره؛ وهذه لا تتكشف أمام العقول التي لا تخلص في عشقها.. فيكون الفراق كما هو اللقاء أنين ناي يتوجع ليسعد الحزانى:

استمع للناي كيف يقص حكايته.

انه يشكو آلام الفراق (يقول):

أسمع الناي معربا عن شكاته

بعد أنبت نائيا عن لداته

"إنني منذ قطعت من الغاب

والناس رجالا ونساء يبكون لبكائي

قائلا في شكاته للعباد

بعد صحبي ماذقت طعم الرقاد

إنني انشد صدرا مزقه الفراق،حتى اشرح له ألم الاشتياق».

يقول الرومي في مقطع آخر:

لا تجزع لجرحك

وإلا كيف للنور أن يتسلل إلى باطنك.

حتى للجرح فلسفة في باطن من يكون لسانه روحه التي تنطق وحبره القادر على صياغة المحبة في أجل معانيها ومداركها.

سعيت أن أرى الرومي يتجول في شوارع طهران كأني ابحث عنه في العيون... وفي الجمال

تعتني إيران بتخليد شعرائها

المنساب سحرا لكأن روح جلال الدين حائرة لا تزال تسعى لبلوغ الكمال من خلال مواجع الإنسان.. والناي المختنق بالحزن في قصبته.

رأيت جلال الدين في أعين جميلات كأن الحزن يكتب روحانيته في العيون التي في طرفها «سحر» وفي تأملات فتية رؤيتهم للغد واقعية لا تستوعبها نظرات الرومي الروحية، ونظرته لما هو أبعد في فلسفة حياة، لا حصار فيها، ولا تخصيب نووي!

## وداعا.. طهران

من النافذة التي ترتفع عن الأرض كثيرا كانت سماءطهران ملبّدة بما تبقى من غيم سفح مطره البارحة.. وعلى امتداد البصر كانت البنايات مفسولة ببهاء الصباح وبماء المطر.. وكان المشهد رائقا للنظر إليه ورائعا للسير فيه ومبهجا لرسم لوحة تمتد بين فضاء السماء وهدأة الأرض.كان أمامى على البعد/القرب برج ميلاد طهران بارتفاعه المهيب يكاد يلتقي بما تبقى من الغيم .. مرتفعا عن سطح أرض المدينة مئات الأمتار كما هي طهران بارتفاعها الكبير عن سطح البحر. في البرج قضينا أمسية جميلة بما يشبه الحلم.. بدات بالموسيقى حيث التراث الفيروزي مع الرحابنة وتذكر أم كلثوم وبين هذا وذاك لمسات من الموروث الموسيقي العماني .. ثم التجوال بين صور ولوحات من بلادنا؛ والعشاء المميز في مطعم البرج على علو 281 مترا.. وأخذنا إليه مصعد يقطع سبعة أمتار في الثانية. برج ميلاد هو أعلى برج في إيران يبلغ طوله 435 مترا، وافتتح عام 2008 لأغراض من بينها تقوية البث الاذاعي والتلفزيوني وتحسين خدمتي الاتصالات والإنترنت، ويضم البرج شبكة اتصالات ومطاعم، وفندقا من فئة 5 نجوم، كما يتكون من ثلاث اقسام رئيسية هي القاعدة التي تتألف من ستة ادوار وتشكل الطوابق السفلى للبرج والهيكل الذي صمم على شكل ثماني الاضلع بارتفاع 315 مترا والهرم، ويعلو البرج هيكل معدني يشكل رأسه ويضم 12 طابقا بما فيها الشرفة الرئيسية لمشاهدة العاصمة طهران من فوقه والمطاعم والمقاهي وأجهزة الرقابة والسلامة فيما تضم الطوابق الأرضية التي شييدت في اسفل البرج على مراكز ترفيهية واسواق تجارية.

في أسواقها المزدحمة كانت أبصارنا تبحث عن المكسرات والزعفران.. يخاتلنا جمال كان

قصائد عمر الخيام لا تزال تتشكل رباعيات تغزل من العشق لهيبا ومن الشوق جمرا ومن الفاتنات.. فتنة تسير بلحن فارسي آسر.

كانت طهران تتنفس هواء انقى من مدن أخرى متعبة بالتلوث وضجيج السيارات والدراجات النارية.. وصراخ البشر.

ووجدت طهران تتنفس جمالا..

وحزنها لا لون له بين جيل من الشباب يشبه نظرائه في اي بقعة بالعالم.. وقلة من العمائم لا تكاد تظهر مع زحام العصر وهو يسير بخطى ثابتة تعكس تنوع حضارة كأنما نشرات الأخبار لا تمر من بين هؤلاء.

سالونا كثيرا عن عمان والمذاهب والتعليم والثقافة.. واليمن.

وكل له مقاصده..

كان البعض يشرح بيديه عندما تعجزه اللغة عن علاقات عمان وإيران الثابتة والمتوازنة..

لكن مندوب مبيعات منظمة المكتبات والمتاحف ومركز وثائق العتبة الرضوية المقدسة كان يحدثنا عن صرح فكري يحضر بين ارففه أكثر من مليوني كتاب متخصصة في الأدبين الفارسي والعربي.

وإذ أودع طهران الحضارة والتاريخ أتمنى أن انسى مواجع السياسة وما قرأته منها عن ملف نووي وطموح قومي وتوسع طائفي وصراع يخلط روح الدين بشيطان السياسة.

لم تكن طهران وحدها قادرة على منحي فرصة قراءة كتاب هذه البلاد المتسعة، ولم تكن الأيام السبعة التي أمضيتها فيها تعطيني فرصة الجلوس إليها أكثر للاستماع إلى أقوالها، لكنني لمحت شيئا لم أكن أستوعبه، كان هناك من يحنّ إلى العصر الإمبراطوري، ولم يمنعه شيء من المجاهرة به أمامنا.

# إندونيسيا..
# بلاد تصنع الطبيعة ضحكتها

فاجأتني أندونيسيا كثيرا، ربما لأنني لم أكن أقرأها إلا من خلال وجوه عرفتها بيوتنا أكثر، في سحنة الشقاء والمشاغبات لسكينة ونور وسالمة وسائر الأسماء التي كنا نختارها بأنفسنا على الأغلب ليسهل علينا مناداتهن من أجل إحضار كوب شاي أو ملاحقة طفلنا الذي عهدناه إليهن بالرعاية والتربية..

بدءا من حالات التردد على مكاتب جلب (عاملات المنازل) وصولا إلى نشر إعلان هروب عاملة منزل.هي بلاد الكثافة البشرية المقتربة من ربع مليار إنسان يعيشون على مجموعات من الجزر التي تتشكل منها هذه البلاد وقد احتسبت ضمن الكتلة الإسلامية.

لكن الوصول إلى أندونيسيا قادر، وببساطة، على تغيير الصور النمطية ليمكن قراءتها على أنها حكاية جميلة مستلّة من البحر، بلاد تصنع الطبيعة ضحكتها، كلما قلت أن هذا المشهد لا يقاوم دون المكوث فيه عمرا، يفاجؤك مشهد آخر يسحبك في لحظاتك الحلمية.

للمرة الأولى أزور هذا البلد المترامي الأطراف.. تاريخ لا أعرفه، وجغرافيا تمتد على سبعة آلاف

جزيرة، وفي معلومة أخرى قرأت أنها أكثر من سبعة عشر ألف جزيرة، سبع جزر منها مأهولة فقط، والبقيّة تبدو مجرد بقع وسط الزرقة، الجزيرة الرئيسية جاوة تحتضن العاصمة جاكرتا، وبين طرفيها امتداد يحتاج إلى رحلة ساعات بالطائرة، وقضاء عدة ساعات في السيارة بين مشوار وآخر بسبب الزحمة الرهيبة.. ففي لحظات تعبرك مئات الدراجات ذات اليمين وذات اليسار، وعددها أكثر من 12 مليون دراجة في جاكرتا فقط.

.. وبدأت أبحث عن أندونيسيا الحقيقية لا التي نعرفها من بعيد، عبر تلك الوجوه التي ألفناها، والصور النمطية التي شكلناها..

هي رابع دولة من حيث عدد السكان، عالميا، والأولى بالنسبة لعدد المسلمين، أحد الأعضاء المؤسسين للأسيان، وعضو ضمن مجموعة العشرين للاقتصادات الرئيسية، والاقتصاد الإندونيسي هو الثامن العشر عالميا من حيث الناتج المحلي الإجمالي الاسمي، والخامس عشر بالنسبة للقوة الشرائية، وشعارها: الوحدة في التنوع، إذ تتكون من قوميات وديانات ولغات، إنما استطاعت أن تكون في قالب واحد.. له الهوية الإسلامية، بحكم عدد السكان، ووصلها الإسلام عبر التجار المسلمين خاصة من اليمن، وفي بعض المتاحف فإن الأزياء المستعملة في الماضي كانت أزياء عربية يمنية.

يوجد في إندونيسيا مساحات شاسعة من الأراضي البرية تجعلها في المرتبة الثانية من حيث مستوى التنوع الحيوي في العالم، لكن هذا الثراء في المقومات الطبيعية لم يغيّر مستوى سكانها الاقتصادي، فأغلب سكانها فقراء.. أو تحت خط الفقر.

تتكون أندونيسيا من ثلاثة وثلاثين مقاطعة، و"كان الأرخبيل الإندونيسي منطقة تجارية هامة منذ القرن السابع في عهد سريفيجايا، ثم في وقت لاحق، في عهد إمبراطورية ماجاباهيت من خلال التجارة مع الصين والهند. استوعب الحكام المحليون تدريجياً الثقافات الدينية والسياسية الأجنبية منذ القرون الميلادية الأولى، وازدهرت الممالك الهندوسية والبوذية، تأثر

التاريخ الإندونيسي بالقوى الأجنبية بسبب الموارد الطبيعية المهمة للبلد، جلب التجار المسلمون الإسلام، أما القوى الأوروبية فقد اقتتلت لاحتكار تجارة التوابل في جزر مالوكو خلال عصر الاستكشاف، بعد ثلاثة قرون ونصف من الاستعمار الهولندي حصلت إندونيسيا على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية. وقد كان تاريخ إندونيسيا مضطرباً بسبب التحديات التي تفرضها الكوارث الطبيعية والفساد والحركات الانفصالية وعملية التحول الديمقراطي وفترات من التغير الاقتصادي السريع".. والمصدر في هذه المعلومات موقع ويكيبيديا.

وأتتبع المزيد من المعلومات عن هذه الدولة / القارّة، حيث وجدت أن اسم إندونيسيا مقتبس من الكلمة اللاتينية إندوس وتعني الهند، والكلمة الإغريقية نيسوس وتعني جزيرة، وتعود التسمية إلى القرن الثامن عشر، أي قبل تشكيل جمهورية إندونيسيا، وفي سنة 1850 اقترح عالم الأصول الإنجليزي جورج إيرل إطلاق مصطلح إندونيسيون ومصطلح مالايونيزيون على السكان القاطنين في الأرخبيل الهندي والملايو، وفي نفس المنشور استخدم مصطلح إندونيسيا أحد تلامذة إيرل واسمه جيمس لوجان مرادفاً للأرخبيل الهندي، رغم هذا فالأكاديميات الهولندية فقد استخدمت مصطلح أرخبيل الملايو، والهند الشرقية الهولندية في منشورات الهند الشرقية عوضاً عن استخدام كلمة إندونيسيا (هندي - الشرق - الإرخبيل).

وقد أصبح اسم إندونيسيا أكثر شهرة في الأوساط الأكاديمية خارج هولندا مع بداية القرن العشرين، واعتمدت المجموعات الوطنية الإندونيسية هذا المصطلح للتعبير السياسي. وقد عمم عالم الأصول أدولف باستيان من جامعة برلين هذا الاسم من خلال كتابه (إندونيسيا وجزر أرخبيل الملايو: 1884-1894)، وأول عالم أندونيسي استخدم هذا الاسم كان كي هجر ديونتارا عندما أسس مكتب صحافة في هولندا وكان اسمه: (مكتب صحافة إندونيسيا) سنة 1913.. ومصدر هذه المعلومات الشبكة الإلكترونية.

تعد اللغة الإندونيسية، وهي إحدى لغات الملايو، اللغة الوطنية الرسمية للبلاد، لكن معظم الإندونيسيين يتكلم على الأقل عدة لغات من مئات اللغات واللهجات المحلية، ويشتركون في اللغة الأم لتجمعهم بجوار لغات أخرى متداولة كالعربية والإنجليزية والهولندية.

إبداع الألوان في حديقة الزهور

الماء المسكون بمتعة افرحة

## زحام.. وإكتشاف

فور الخروج من المطار الذي تنتهي فيه المعاملات بسلاسة تستقبلك الشوارع، مكتظة، ولكن باحترام لم ألاحظ أن هناك من يعتدي على حق آخر في السير..

هذا الزحام لا يضغط على الأعصاب، أغلب السائرين يلفهم هدوء غريب.. (وتخاله أنت الزائر لهذه النوعية من البلدان المزدحمة.. مريبا).

لا تكاد تسمع صوت منبه سيارة رغم حالة الشلل التي عليها الشوارع، وفي كل مكان من أنحاء المدينة.. بسلاسة تعبر الدراجات النارية، لا أحد يعتدي على حق أحد، كأن بينهم اتفاق ملزم للتدثر بالصمت والهدوء قدر الإمكان، وأحسبهم يوسعون لبعضهم البعض كأنهم يدركون أنهم في المركب سواء، وعلى كل واحد الأخذ بيد الآخر.

خشيت من الزحام وضغطه النفسي لكن المشاهد من حولي تدعو للتأمل: أي أعصاب هذه التي تحتمل هذا الضغط؟! في مدينة تجمع عشرات الملايين من البشر والسيارات والدراجات، ولا تكاد تسمع صوت شكوى.. ولا ارتفاع صريخ من هنا وهناك كما اعتدته في عواصم عربية.

مررت ببنايات تناطح السحاب، تميل إلى التناسخ حيث هناك بنايات تتشابه بجوار بعضها، مثنى وثلاث.. وصولا إلى (سداس) حيث يمكن مشاهدة ست بنايات بذات الشكل، كما مررت بما يمكن تسميته بالمنازل لفقراء يجاورون جمال الطبيعة الهائل.. لكنه الجمال الذي لا يشبعهم من جوع ولا يأمنهم من خوف..

بحكم العادة أنظر إلى مستوى المعيشة في المدن من خلال الشارع، أناقة السائرين وتعاملهم، ونظافة السيارات وموديلاتها وأنواعها، وخطوط المشاة، وإشارات المرور، المنازل على جانبي الشارع، المحلات التجارية.

لكني أحسست بجاكرتا ترتدي قناعا رهيبا، كأنها ليست عاصمة البلاد التي تضم 245 مليون نسمة، سياراتها نظيفة.. وحديثة، مع ما تعانيه من مستوى معيشي متدني، وأبرز دلالاته أنه يدفع بأمهات لترك فلذات أكبادهن للعمل خادمات (ولاأقول أنهن عاملات منازل فقط).

طلبت من (أبو حسين) اليمني الذي هاجر والده قبل ثمانين عاما المرور على أقرب محل سحب آلي، وجدت مكائن السحب في كل مكان، خدمة يحتاجها السائح كثيرا، قلت له كم تقترح أيها الأندونيسي اليمني؟

في الدفعة الأولى سحبت مليونا وربع المليون، ليكتمل مع الدفعة الثانية المليونين ونصف المليون، بين الأوراق من تحمل رقم 100000، وأخرى نصف هذا الرقم: 500000، لكن ما قيمة هذه الملايين، والشعور بأنني مليونير، بينما إيجار شقة فندقية يحتاج إلى أكثر من مليون.. روبية؟!إذ أن مليونهم يساوي 35 ريال.. تقريبا.

لا تبدو أندونيسيا خارج السمات السكانية للشعوب الآسيوية، فتتشابه في ملامحها البشرية مع عدد من الدول الأسيوية حتى تبدو كأنها في وسط المسافة بين الصين والهند، ليس جغرافيا فحسب، بل بالنسبة أيضا للإنسان العادي، وهو يشق طريقه في يوميات مرهقة، وحياة بسيطة، والحديث عن الأغلبية، الطبقة الدنيا، حيث أن "الوسطى" تتآكل في ظل اقتصاد السوق، وتمركز الثروات في أيدي نخبة اقتصادية، وأغلبها محسوبة على المجتمع السياسي بالضرورة.. فالسلطة تصنع الثروة، وكذلك فإن الثروة تأتي بالسلطة أيضا.

وفي المجتمعات الفقيرة فإن التكاثر يصبح سمة غالبة مع غياب ثقافة تحديد النسل، والأهم ارتفاع عدد النساء بالنسبة لعدد الرجال حيث أشار أحدهم إلى معلومة (لم أجد ما يؤكدها بل أن المعلومات تشير إلى مساواة بين الجنسين عدديا).

المسجد يطل خلف حقول الجمال

المسجد .. صوره عن : قرب

حيثما تولي وجهك فثمة .. حسن طبيعي

منازل تتوزع بسيطة بين الأبسطة الخضراء

تقول معلومته (التي تعكس استنتاجه) أن هناك 14 امرأة لكل رجل في هذه البلاد، ولذلك فإن الزواج من مثنى وثلاث ورباع، إضافة إلى وجود (مزواجيين) من دول الخليج يأتون للاقتران بما أمكنهم من هذه الكثافة (النسائية).. كل ذلك يمنح زيادات واسعة في عدد السكان، كون أن الخليجيين أيضا يتركون أبناءهم فيها، ويتنقل بعضهم (كما عرفت) من امرأة إلى أخرى، مسببا الكثير من الآلام للأمهات وهن يواجهن مصاعب جمة في الحصول على الزوج.. الرحّال.

يأتون للزواج ويرحلون.. قد يعود البعض وقد لا يتمكن.. لعجز ما أو تعمد.. والأمر سيّان، أنكروا أبوّتهم، أو علّقوها على أغصان شجرة بامبو، على انتظار.. ما لا يأتي.

وغالبا فان المرأة الاندونيسية هي التي تسافر للعمل بينما يمكث الرجل من أجل الأسرة خاصة أنه (ربما) لديه امرأة أخرى تبقى معه.. أو معها.

وفي هذا الأرخبيل الآسيوي المترامي الأطراف يشجع الفقر على الاستغلال، من الراغبين في الزواج، أو في عاملات منازل، بما يشبه المتاجرة، فمكتب لخدمات العمال يطلب ما يقارب الألف ريال للحصول على عاملة منزل عن طريقه، حيث ألزمت الحكومة الأندونيسية رعاياها بالسفر للعمل خارجها عبر هذه المكاتب، كما تقوم النساء الراغبات في العمل بدول الجذب (النفطية) دفع مبالغ أيضا، وتبقى المرأة بين مطرقة الحاجة وسندان سداد ما اقترضته للسفر إلى تلك البلاد التي يقال هنا أن النقود فيها لا حصر لها، لكن الواقع مؤلم أحيانا، والبدائل متاحة.

وفي مناطق الجذب للسيّاح العرب تجد مناطق اصطبغت بلون خليجي، حتى أنهم يعرّفون هذه البقالة أو تلك بأنها عربية، وليست أندونيسية، بما يشير إلى وجود متطلبات السائح الخليجي في ذلك (السوبر ماركت) بدءا من الأرز الباسمتي وليس انتهاء بحليب بوني وأبو قوس، مع طاولة جانبية لصرف العملة، وترتيب الرحلات، فردية وعائلية، وتأجير المنازل والفلل، وجميع ذلك باللغة العربية.

ولا تبدو أطفال الشوارع ظاهرة في المجتمع الأندونيسي رغم كثافة السكان، خاصة في جاكرتا، العاصمة، التي تبدو كمدينة معاصرة، فيما يظهر بضع أطفال في الأماكن السياحية التي يرتادها العرب (الخليجيون بالطبع) ويقوم الطفل بتأدية بعض الأناشيد الدينية طالبا ما يسمى بالهدية، بشكل مهذب ولطيف، وبكلمة واحدة يتراجع عن إلحاحه البسيط، ومن بعيد تبدو الملامح العربية (رغم تقاربها الآسيوي) واضحة لمن يريد الفوز بصفقة شراء محترمة، فالمطاعم العربية (خاصة اليمنية) وهي تقدم المندي والكبسة غالية (مقارنة بأسعار البلد) لكن ذبيحة واحدة أرخص من وجبة عائلية لخمسة أشخاص، ولا يهم التعليق على اللافتات باللغة العربية وهي تتعامل مع قرائها تدعوهم لشراء خروف أو تيس!

### إبتسامة.. برسم "سياحي"

في هذه البلاد القصية، وهي التي تعيش على حواف الماء عبر جزرها، تتعدد صناعة الترفيه، حتى أنها قد تكون القبلة السياحية القادمة للزوار العرب، خاصة من دول الخليج الذي اكتشف بعض بنيها هذه البلاد.. وبعضهم أكثر فيها الفساد، حتى وهم يقبلون على الزواج منها، لكن الحكايات المتداولة.. لا تسر.. ولا تشرّف.

شدّتني فيها (وإليها) صناعة الترفيه، حتى أن المرء يحتار أين يذهب، وقد تعددت الخيارات وتنوعت، وما على السائح سوى إسالة نقوده المحلية (والعالمية من دولار وخلافه) لتكون بالمحلية الأندونيسية (الروبية).. حينها لا يغدو مبلغ المائة ألف يكفي لتناول وجبة غداء.

في مكانين معينين داخل العاصمة جاكرتا عايشت تجربتين لصناعة الترفيه، الأول يدعى تماني ميني، والآخر دنيا فانتاسي، ويمكن قضاء ساعات عدة دون أدنى ملل، فمن التجوال في متاحف حية بالتراث المحلي، وركوب التلفريك فوق بحيرة ترتسم على سطحها خارطة الجزر الأندونيسية بالعشب، والتمتع برونق المكان، وصولا إلى مدينة ألعاب محملة بالدهشة

والترقب.. كنا نقف في طوابير طويلة للوصول إلى حظنا من تجربة هذه اللعبة أو تلك المتعة.

طوابير طويلة من الانتظار الممتد نحو ساعة أو أكثر.. إنما هل تجد هناك من يتذمر؟! أو يعتقد أن انتظاره الطويل فيه مهانة لمركزه الإنساني العظيم!

لا تجد إلا الضحكات تتعالى، والأطفال يشاغبون، لكنهم يعودون إلى مكانهم داخل صفوف الترقب، لأن الجميع جاء ليستمتع باللحظات، ورغم غلاء التذاكر إلا أن هناك من يقبل عليها، متحملا ومتسليا بالوقت المقتطع بين الحصول على التذكرة من الباب الرئيسي وصولا إلى حظه من المتعة واللعب.

مساحات كبيرة داخل ذلك الاخضرار الطبيعي، يقابله البشر بهدوء وسكينة، وبعض المرح الصافي، حيث لا تجد من يتشاجر أو يرفع حدة صوته، وقد عوّدتنا عواصمنا العربية على التشنج البشري، والخناقات بالصوت إن لم يكن بالأيدي.. والمطاوي الجاهزة لأخذ ما نتوهم أنه رد كرامة.

على مساحة هائلة يجلس المئات من الناس في مطعم يمتد على شاطيء البحر، السلال ممتلئة بالسمك وسائر المخلوقات البحرية ليختار المرء ما يريده حسب الوزن، ثم يبحث عن طاولة بين عشرات الطاولات، بينما يتخاطب العاملون بالأجهزة اللاسلكية وهم يمرون بين هذه الطاولة أو تلك، الآلاف يقصدون هذا المطعم يوميا، وعائده مليارات الروبيات يوميا.

في الطبيعة الأندونيسية يجدر التحليق عاليا، عبر الواقع بواسطة المظلات التي يمكن القفز بها من شرفة جبل، أو بالخيال وهو يحلق في فضاءات من الجمال لا حصر لها.

أمام المتأمل تلك الجبال اللاتي ينام السحاب في حضنها، وتتدثر ببياض الضباب كأنما لا يكفيهن ذلك اللحاف الأخضر.

الصور تلتقط مساحة من الجمال الآخضر

للجمال ..عنوانه الدائم

كان الزمن يشير إلى شهر رمضان، والطقس الصيفي كأنه الحلم، علي شرفة مطعم يمكن تناول الإفطار بين سحاب أبيض يعبر وجوه المفطرين، وبعد دقائق زخات قوية من المطر تكاد لا تصل الأرض لفرط ما حملت من أشجار وأزهار، فيما المطاعم تفتح شرفاتها باتجاه العلو، كأنها تربط بين الضفتين، الأعلى والأدنى.

تتكاثر المطاعم العربية في جاكرتا وخارجها، وهي تعرف الأماكن التي تستقطب السياح العرب، وحينما أقول العرب فإنني أعني الخليجيين أكثر، ومن حضرموت جاءت المطاعم اليمنية لتقدم المندي والكبسة لترضي أذواقنا، وفي مناطق الجذب السياحي يمكن قراءة أسماء المطاعم باللغة العربية، حتى أن أحدها كتب اسمه على لافتة ضخمة: حبيبي.. إنما يبدو أن قائمة الأسعار استلّت من مطاعم عواصمنا، وربما تكون أغلى منها، بينما لا تمت إلى تلك البلاد بصلة ولا وصل.

على الطريق الواصل بين العاصمة وجبل بونشاك دخلت مسجد التعاون، هناك صادفني اكتشاف آخر.. الضباب ينافس اخضرار الأشجار.. وقبل أن تدلف حرم المكان تمرّ على ساقية صغيرة من الماء تغسل قدميك مما علق بهما، والخارج من دورة المياه يبلل قدميه أيضا حيث لا مفر سوى أن يمر بتلك المساحة المائية.

من فرط الدهشة لا تستطيع القبض على اللحظة.. لا بالصورة ولا بالكلمة.. لكن وراء حكايات الجمال في الطبيعة حكايات إنسانية لا يمكن إلا الإنصات إليها.. هناك أمهات يقطفن من أشجار الحزن لعلهن يدارين به سوءات أطفالهن اليتامى.. رغم أن والدهم يجلب من بقرة النفط ما أنساه ذكر أولاده الذين قذفهم في رحم اندونيسيي في لحظة فيض استئناس بجمال آسيوي غض يكمل به احتفاءه بحسن الطبيعة.. وحيث الدولار شهية الفقراء وصندوق أحلامهم.

أطفال من أصول عربية يفتشون في أعين أعمامهم القادمين من تلك البلاد النفطية عن لحظة

عطف لعلها تأتي بين ساعات الاستجمام وأيامه.. كأنهم يقولون أن أبانا هناك.. فاعطونا لعلكم تكفّرون عن بعض خطاياه.

أما الصينيون فيتكاثرون في البلاد، قادمون بأموالهم ليستثمروا.. بدت كلمة صيني حاضرة في أحوال متعددة داخل البيت الاندونيسي الممتد كاستراحات عملاقة فوق زرقة مياه آسيوية. قارة عامرة بمليارات البشر وتريليونات الثروات.

وفيما يبحث مواطن عربي عن أرض أنثى يلقي إليها شبقه يفتش الصيني عن أرض يلقي إليها ملايينه فتزهر امتدادا ومالا.. والرؤية لا تقبل التعميم ولا تحتمل.

وأندونيسيا بلاد لا تضيق بما لديها ممّا يقار المليار إنسان، أو بتكاثر قومياتها ولغاتها، بل تفتح ذراعيها أمام القادمين الجدد فتمنح جنسيتها بعد خمس سنوات من الإقامة خاصة إذا كان عربيا ومسلما؛ ولذلك هاجر إليها بعض ممن ضاق بهم وطننا العربي والاسلامي الممتد على مآس وحروب.. من العراق ووصولا إلى أفغانستان.

## بونشاك.. الجبل والجنّة

كانت وجهتنا للإستقرار منطقة جبل بونشاك، وفي التوقع أقلّ ما وجدناه.. أن ننعم بمكان كهذا، قال أبو حسين بما تبقّى على لسانه من العربيّة أن أحد السياح الخليجيين قال له أنكم تعيشون في الجنّة، وعندما استغفر من هذا القول فسّر له السائح بأنك لم تر الجنّة في الآخرة، ولذلك بوسعك أن تعتبر ما تراه أمامك جنة الله في أرضه.

بونشاك جايا، ويعني قمة النصر، يقع في الغرب الأوسط من إقليم بابوا، ويعد أعلى جبل في إندونيسيا، ، ويعتبر أيضاً أعلى نقطة بين جبال الهيمالايا و الأنديز، وأعلى قمة في جزيرة في العالم، وأطلق عليه المستشكف الهولندي جان كارستنز اسم هرم كارستنز، وقد شاهد أنهار

حقول الشاي

الجليد على قمة الجبل في يوم صحو عام 1623 فسخر الأوروبيون منه عندما أخبرهم بأنه شاهد ثلجا في منطقة استوائية، ومع أنه تم الوصول إلى حقول الثلج في 1909 بواسطة المستكشف هنريك ألبيرت لورنز مع ستة من الحمالين الذين جندوا لهذه المهمة من أبوكايان في بورنيو، فإنه لم يتم الوصول إلى القمة حتى عام 1962 بواسطة حملة يقودها متسلق الجبال الأسترالي، هنريك هارر مع ثلاثة من أصدقائه، تمبل، كيباكس، وهيوزينجا، لكن مع التغير الحاصل في معدل درجة الحرارة فإن الأنهار الجليدية في بونشاك جايا انحسرت سريعا، وذاب نهر مبير خلال الفترة من عام 1994 وحتى عام 2000.

كنّا نسيّر تجوالنا في الأمكنة الإندونيسية، وفق ما يراه أبو حسين، متبادلين الضحكات حول طريقة نطقه للغة العربية ولم يبق منها الكثير، ينشّطها من خلال احتكاكه بالسياح الخليجيين، الذين يأتون مع عائلاتهم، واقترح علينا منتجعا في الجبل يضم نحو 2500 فيلا بديعة الألوان، حيث تتناثر في حديقة خضراء تزينها حدائق الورود في كل مكان، وداخلها بحيرة ويعبرها نهر صغير مكونا شلالات تثير المتعة النفسية ضمن نسيج من الإبداع الأخاذ، وصولا إلى الإرتفاعات داخل المنتجع، حيث تقع بعض الفيلل على علو يتيح لساكنيها رؤية مساحات كبيرة من امتداد القرى في في الجبل، ويغدو المشهد ساحرا مع المطر الخفيف والطقس البارد أحيانا، في عز الصيف، مع انطلاق الألعاب النارية من شرفات المنازل حيث يعمد السياح إلى أطلاق البهجة في سماء المكان، تتوفر هذه الألعاب بكثرة.. حتى لدى الباعة الجوالين.

كان حظّنا، السائر بجمالياته في هذه البلاد، سكنى أعلى هضبة في المنتجع، بإطلالة تشبه الحلم في النهارات الممطرة، وفي الليالي المزينة بالصحو القادر على إهدائنا قمره ونجومه بإشراقات ملهمة، وكتابة المزيد من الذكريات علىدفتر الرحلة، الذهاب بالدراجة النارية إلى مسجد صغير بالمكان، لتأدية صلاة التراويح، الدخول للمسجد وفق تواقيع قطرات المطر على الأشجار المتكاثفة، وصوت الماء المنساب سحرا في الأمسيات الرمضانية، سماع الأدعية حتى شروق شمس اليوم التالي، المرور على المحلات التجارية البسيطة، المحاذية لطريق شبه معبّد يجاور المنتجع، تبيع الفواكه

والخضروات بأسعار تبدو ليست منتمية لبساطة المكان، بل حسب قدرة السائح الشرائية.

زيارة حديقة السفاري دخول في عالم مكون من دهشة ترافق السائح في كل لحظة، الطبيعة والشلالات المنحدرة من الجبال وسط غابة تحيلك إلى مناخ أسطوري، وصولا إلى التجوال بالسيارة بين الحيوانات، الأليفة التي تقترب من نوافذ السيارات لإطعامها مما يباع على الطرقات القريبة من المنتجع، والمفترسة، خلف موانع تقي المستمتعين من شهيتها المفتوحة، ولا تكفي الساعات لقطف كل حصاد الممكن من المتعتين البصرية والروحية، مع ذلك الشعور الغامر بأن الأشياء في أمكنتها تكون أجمل، الشلال الطبيعي المنحدر من مرتفعات مغطاة بالأشجار، فتسير بينها حيث أغنية الطبيعة مموسقة من كل المفردات حولك، المطر والمياه المتدفقة وكثافة الغابة السائر بين أشجارها..

مفردات تتكاثر في الفسحة الممكنة من الفرجة، في منطقة البراكين حيث تدخل في طبقة لا تدرك إن كان المشهد الأبيض أمامك غبار براكين أو إطلالات السحب العابرة للمكان، وفي حقول الشاي بالدروب الصغيرة الفاصلة بين امتدادات الأشجار الصغيرة حيث اللون الأخضر سيّد الرؤية والرؤيا.

غادرت إندونيسيا بعد نحو 24 يوما أمضيتها فيها، متنقلا بين مدن عدة، وقد فاتتني زيارة الجزر المعروفة فيها، حيث للسحر إبداع آخر مكتوب بجوار زرقة البحر، وقد آنست كثيرا إلى جمال مكتوب باللون الأخضر، متناثر على تلك الأمكنة الرائعة..

# الهند..
# نظرتان «لا تكفيان»

لا تبعد الهند عنّا كثيرا، لا في شروط الجغرافيا، ولا في اعتبارات التاريخ.. ومن المجازفة الخطيرة أن نلغي قدرا كهذا حيث أن كل السياقات تقرّبنا من بلد بحجم قارّة، وبشر يفيضون عن بلادهم المتسعة فيتوزعون على قارات العالم.

أعرف الهند منذ أول مواطن منه عرفته قريتنا في سبعينيات القرن الماضي، بقي في الذاكرة، وفي التواصل معه عندما صافحت عيناي أول المشاهد خارج مطار بومباي.. إنما الهند حاضرة في تكويني المعرفي عبر عملاقين منها: طاغور وغاندي، كما هي أفلام بوليوود، ونجوم السينما الهندية الذين تلمسنا في حكاياتها مشاغبات الطفولة، والأغنيات المنسكبة رحيقا، حتى دون أن نفهم ماذا تعني الكلمات.

لم أزر الهند، وهي القريبة، كما حفظنا نشيد مركب الهند ذي الدقلين حينما يتمنى الصوري أن يكون ربانه وهو يعبر البحر والبحرين. القريبة حسب معطيات الجغرافيا، وهي التي لم تفصل بيننا وبينها سوى بلون أزرق يمتد من ساحل مسقط وحتى حواف القارة الهندية.

والقريبة حسب دروس التاريخ، حينما كانت مدن الهند بوابة مفتوحة أمام بحارة عمان وتجارها،

يحملون زادهم من تمر وليمون مجفف ولبان، ويعودون من هناك بعجائب المنتوجات الهندية.

جربت السفر إلى عشرات المدن حول العالم، لكنني لم ازرها هذه البلدة العظيمة والعميقة، القارة اللغز، المتمددة بشرا وثقافات، الساكنة في كل العالم، بأبنائها الذين تعرفهم كل قرى الدنيا، بثقافتها التي ترسخت حضارة إثر حضارة، مئات اللغات، وعشرات الديانات، تكتب تاريخها من جديد، وتحقق أعلى نسبة نمو في العالم.تكاثفت علي التأملات، فيها وعنها.

فيها، عندما يغدو المكان مسربا لما لا يحصى من التأملات في حال الحياة، وكلما تفجّر العالم غربا كانت آسيا أقرب إلى خطط المواطن العماني للسفر إليها، كأنه يستعيد سيرة أجداده، حينما وضعوا موانئ الشرق نقاط مسارهم للبحث عن حياة ما.

في الشرق تبدو الخيارات أقل وطئا في متطلباتها، حيث البشر هناك يتمتعون بلطف تجاه الغريب، هو ضيف بدون لائحة اتهام تبحث عن اسمه، كما هي مطارات الغرب، وسياحة رخيصة، يضاف إليها حاليا ما عرف عن تمتع الهند بتطور طبي أضاف إلى جمال طبيعتها بعدا آخر للسفر إليها. لماذا تأخرت عن الهند؟

لا أدري سببا واضحا، لكن حتما إنها تغري بالارتحال إليها، هي الثرية بحضارة، وحاضر، والأسباب للسفر إليها شتى، متعة الإكتشاف أولها.. وليست إلا النافذة الأولى. ولا بد من التحليق في بلد كل شيء فيه يغري بالاكتشاف، رغم ضيق الوقت، وتصاريف الرحلة.

إذن هذه هي الهند التي عرفها كل بيت عماني، ارتحل إليها كما فعل من هم قبلي، أو كما آخرون في بيوتهم لترتحل هي إليهم، حتى غدا كل قادم من هذه القارة هو هندي، مهما كانت جنسيته، لأن المفردة تعكس الصورة النمطية عن القوى العاملة البسيطة التي وصلتنا مع مطلع ثورة التنمية في بلادنا أواخر سبعينيات القرن الماضي.

أرض غاندي، الفيلسوف الذي أبهر العالم بقدرته على طرد بريطانيا العظمى من بلاده بمقاومة سلمية خلدته في ذاكرة العالم، لا في ذاكرة بلاده فقط.. أرض طاغور، الشاعر العظيم، والحكمة القادرة على تخليد صاحبها، رغم ملايين البشر من حوله، تأتي بهم الحياة وينتهون إلى حيث اللاشيء، وحدهم العظماء يبقون.

أرض المناضلين ضد الجوع والفقر، والبسطاء الذين يطلون علينا عبر شاشات السينما، تأكل الحاجة كرامتهم.. هي العمال الذي نراهم عبر (الفيزا) براتب أشد بساطة.

هي أرض أميتاباتشان وشاروخان، وعشرات النجوم في شاشة بوليوود الكبيرة، هي الأغنيات المنسابة بشجن غريب من الأفلام كما تتسلل من غرف الصفيح والخشب بالقرب من البيوت التي تبنى على أيدي هؤلاء المغتربين في مدن عمان وقراها وسيوحها، كما هو شأن بقية بلدان الخليج.

الهند المنشغلة بمئات الملايين من البشر تدفعهم إلى ثورة إنتاجية محاورها عدة، تخطط لإلغاء الفقر خلال العقود القليلة المقبلة.. الهند التي تسعى لتغيير الصورة النمطية عن أبناء شعبها، المتماسكة رغم كل هذا التباين في الديانات والثقافات، إنها العاملة بصمت، ترفع وتيرة النمو، وترسخ حضورها كواحدة من الدول المستقطبة للتعليم (على سبيل المثال) ليأتيها طلبة العلم من شتى بقاع العالم.

تنهض الهند بقوة لتقدم نفسها مستقيدة من تلك الفسيفساء من اختلافات مواطنيها، حيث تضع الهدف أمامهم، المستقبل، المبني بالعلم والعمل، تقاوم سقطات الفساد، ترتبك أحيانا لكنها تنهض لتتقدم خطوات إضافية، تصنع قوتها العسكرية كما تفعل مع قوتها الاقتصادية.. وتضع ثقلها في برمجيات الحاسوب وعلومه.

لم تعد الهند مصدرا للعمالة الرخيصة كما كانت في السابق، تحمي حقوق مواطنيها، حتى (عاملات المنازل)، بلاد كهذه لا مسار لها سوى التقدم، وتحقيق المزيد من درجات النمو، ومن سار على درب التقدم.. سيصل.

أحد المعابد

وحدها بلداننا العربية من تجعل من عدد السكان طاقة سلبية، تزيد من مستويات الفقر، فتطالب بتحديد النسل، أما الهند والصين فلديهما قول مختلف.

في لغة الأرقام تعد الهند سابع بلد من حيث المساحة الجغرافية عالميا، ولكنها الثانية في حسابات عدد السكان، ولأنها تشبه القارة فإن حدودها تتوزع بين المحيد الهندي جنوبا وبحر العرب غربا، وخليج البنغال شرقا، لكنها تعد مجاورة لباكستان والصين ونيبال وبوتان وبنجلاديش وميانمار وسريلانكا وجزر المالديف وأندونيسيا، تلتقي مع هذه الدول عبر اليابسة أو الماء.

كانت الهند مهد حضارة وادي السند وعبرتها طرق التجارة عبر التاريخ، وزخرت بالعديد من الامبراطوريات، ونشأت فيها أربعة ديانات رئيسية هي الهندوسية والبوذية والجاينية والسيخية، بينما دخلتها ديانات أخرى في الألفية الأولى للميلاد، كالزرادشتية واليهودية والمسيحية، إضافة إلى الدين الإسلامي الذي وضح تأثيره أكثر في المناطق التي انفصلت لاحقا عن الهند وهي باكستان وبنجلاديش.

وفي العصور الحديثة خضعت الهند لقوى استعمارية تمثلت بشركة الهند الشرقية البريطانية في مطلع القرن الثامن عشر، وصولا إلى الاستعمار البريطاني في الفترة من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، وبعد رحلة كفاح مريرة، لكنها بمقاومة سلمية، نالت الهند استقلالها عام 1947.

مجتمع مترامي، جغرافيا، وبشرا، وديانات، وأعراقا، ولغات، إنما يجمع الـ28 ولاية نظام ديموقراطي في سبعة أقاليم اتحادية، ورغم

## بانجلور.. الفاصوليا المخبوزة

البلاد التي تأخرت في زيارتها كثيرا قاربت بين زيارتين لها أكثر مما أتوقع، وطفت في الرحلتين على مدن شتى، بنجلور، ميسور، أوتي، بومباي، بونا.. وكنت الخطوة الأولى باتجاه بانجلور، المدينة

التي قيل أنها من أرقى مدن الهند، وصلتها بعد الظهيرة، حينما أمضت طائرة الطيران العماني أكثر من ساعة على امتدادات طبقات السحب، كأنما المدينة تتخفى وراء ذلك البياض.

تعد هذه المدينة ثالث أكبر مدن الهند، وهي عاصمة ولاية كارناتاكا ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة، وتسمى مدينة الحدائق لوفرة المنتزهات الخضراء فيها، وسميت بهذا الاسم وفق أسطورة هندية تقول أنه في اواخر القرن الرابع عشر كان هناك ملك اسمه فيربالا يهوى رحلات الصيد إلا أنه ضل طريقه ذات مرة في الغابة، وفيما كان يصارع الجوع والتعب وجد كوخا وحيدا في غابة كثيفة حيث تسكنه امرأة عجوز فأطعمته فاصوليا مخبوزة تسمى باللغة المعروفة في بانجلو كانادا «بندا كالو» فأعجبه طعمها اللذيذ وكان مسرورا لدرجة أنه أراد تخليد هذه الذكرى فسمى المكان "بندا كالو اورو" بلغة الكانادا, وتعني مكان (الفاصوليا المخبوزة), وتنطق باللغة العربية بنجلورو , والتي تعرف اليوم باسم مدينة بنجلور .

ومن الأسطورة إلى العصر الراهن، تخطو بنجلور من زمن الفاصوليا المخبوزة إلى التقنية، فهي موطن بعض صناعات التكنولوجيا في الهند والعالم، خاصة تكنولوجيا المعلومات، حتى أنها تعد المدينة العالمية الأسرع نموا في آسيا , ووصفت بأنها تشبه "سلة البايت" في الهند حيث يرمز البايت لوحدة تخزين بيانات في ذاكرة الحاسوب، كما تعرف عالميا بأنها وادي السيليكون الهندي ويماثله في أمريكا وادي السيليكون.

في الأيام الأولى لبدء تعرفي عليها كانت تهديني أجواء خريفية رائعة، كل هذه الأدخنة لا تهم، يكفي أن يأتي الهواء البارد جميلا كل صباح، ومن حولي الطبيعة تنسيني طرقات ماكينة (التك تك).. سيارة الأجرة المتكاثرة بقوة في شوارع لا تأبه كثيرا للحفر في أسفلتها، الكل على موعد ما، وعليه اللحاق به، لا يهم كيف ومتى يصل، المهم أن يبقى على ذلك الأمل.

في المساءات التي يسفح فيها المطر بشدة نأوي إلى غرفنا، بحثا عن دفء، وعن لقمة عيش (لا

من الحدائق المنتشرة في الهند

إمتدادات الجمال تدهش العين

تتداخل المباني مع حدائق الطبيعة

فندق في آوتي

تحرق أمعاءنا بتلك البهارات الحارة).. كان التعامل البشري جميلا حيثما حللنا، تلك الطيبة من الشرقي المحلقة بأجنحة أرواح عرفت ديانات سماوية وأرضية، فتقلبت بينها، تحيي إنسانيتها أولا وأخيرا.

مضت بنا (التك تك)، وسيلة النقل السائرة بعجلاته الثلاث، ترقص على الشارع، بسبب الحفر المتكاثرة، أو القيادة الماهرة والمراوغة لسائقها وهو يشرح بعربية متكسرة الأضلع تعلمها خلال عمله في الخليج عن أنواع الأشجار من حولنا، شدني نوعين منها: شريفة وصلالة.

في مستشفى للعظام كان زميل قطري يصحب والده يخبرني عن بقية الأسرة التي اصطحبها للفحوصات والعلاج، كما التقيت بالسعودي القادم من المنطقة الشرقية يأمل في فائدة من خلال جلسات العلاج التي تأكل الوقت (والمال) كما أوجز الإماراتي معاناته مع المستشفيات التي فرّ منها إلى.. الهند.

في صالة الاستقبال بالفندق البسيط التقي كل صباح بالأشقاء الخليجيين، عائلات وفرادى، قلت للموظف: أين القنوات العربية طالما أن الجاليات المقيمة لديك يتحدثون بلغة الضاد؟!

## يوم جديد في مدينة قديمة

كأنها ليست تلك المدينة الهندية التي باتت البارحة على وقع المطر المنهمر، والبرق المضيء للأرض، والأرض ملآى بالملايين يتقافزون حياة وحيوية في كل بضعة كيلو مترات.

كانت الساعة تشير إلى بدايات الصباح الأولى، وكان الشارع منسحبا بكل ما فيه، وحده بقي الأسفلت دلالة على أنه من بقايا البارحة، أرصفة مبتلّة بالمطر، وأشجار لا زالت تقذف بضع قطرات إلى زجاج السيارات.

الشوارع فسيحة، لولا الحفر، وهناك مشاريع طرق سريعة لا زالت لم تتشكل بعد، لكن المدينة

مختلفة عمّا رأيتها قبل أن تهجع للنوم، كل ذلك الحديد غادرها، حتى يصح القول عن الهند أنه لا فراغ فيها، جميعها مملوءة إما بالبشر أو بالشجر، وبينهما تسير البقر بهدوء غريب، كأن آذانها ليست معنية بالفوضى البشرية من حولها.

بعقلية الكاتب أكثر من نظرة السائح حاولت أن أفهم هذه القارة المترامية الأطراف، بمليارها السكاني، والذي يقول عنه سائق أنه أكثر من مليار لأن الأرقام المتناسلة عصيّة على العد، يكرر دائما اسم علي بابا للإشارة إلى الحكومات الفاسدة التي تتشكل حسب قوله من مجموعة علي بابا والأربعين حرامي.

رأيت الشعب الصامت الذي يكافح، يقول أحدهم أن عليه أن يكافح الخنوع والمسكنة أمام المهراجات والكبار الذي يعرفون كيف يحلبون الضرع الدسم، فيما الفقراء ينتشرون تحت الشمس، تحرق جباههم، يبحثون عن لقمة عيش، وقد كان بالإمكان أن تكون الهند من الدول العظمى، لكنها معايير الحكومة القوية والثرية.. والشعب الفقير، دولة نووية وجيش جرار، لكن لم يرشح من النمو الاقتصادي إلى أفواه مئات الملايين من السكان سوى القليل جدا.

وددت لو الطريق بين المطار ومهجعنا في بانجلور يمر بأمكنة أكثر لأرى المكان بمنأى عن ذلك الصخب المجلجل، لكن سيفتقد المكان أكثر ملامحه حيوية، لن تكون البلاد كما هي البلاد لو أخرجتها من حسابات اللهاث المستمر الراكض في شرايين الحياة.

ليست هي الهند لولا أن السائق يسترسل بلغة عربية جيدة عن مكان عمله السابق في عمان، الوادي الكبير، ثم انتقاله إلى القرم.. كأنه يشير إلى أن بيننا مكوّن مهم في عملية اللهاث خلف لقمة العيش.

هو من ميسور، مدينة ترتفع مآذنها لتمنحك الشعور بأنك في دولة إسلامية، لولا تلك المنصات العالية من التماثيل الهندوسية التي تعيدك إلى الهند، بلد المليار مواطن.

في الطريق إلى أوتي كانت ميسور جسرا لا بدّ منه للعبور، وللتأمل، والاستطلاع لما تحتويه من مكونات مدهشة، كما هي النظرة لجانبي الشارع وهو يمتد على أشجار وحقول، لكن بؤس الإنسان يطل، والأبقار قد تقطع الطريق.

ميسور ثاني أكبر مدينة في ولاية كارناتاكا، وتبعد 146 كيلومترا عن بانلجور، ومن أبرز معالمها مسجد السلطان تيبو حيدر علي الذي يلقب بنمر ميسور بسبب وقوفه الشجاع ضد الاستعمار البريطاني، قاتل مع والده وعمره 15 عاما، وتولى الحكم عام 1782م ليواصل مقاومة المحتلين لكن الجيش الإنجليزي الذي زحف على ميسور تمكن من قتل السلطان وعائلته.

ومن معالم المدينة أيضا قصر ميسور، والذي يروي الترف والرفاهية الهندية في عصر المهراجا ما بين عامي 1638 و1801، وهناك يمكن القول أن المكان أشبه بلوحة رائعة التشكيلن ويقال أنه كان مشيدا من الطين والخشب، وعندما التهمه الحريق ليلة زواج ابنه المهراجا الكبرى عام 1879 أعيد بناءه لاحقا بنفس التصميم لكن الرخام والجرانيت مع طلائه بالذهب والفضة وسائر المواد الفخمة التي نقلت من بريطانيا وأوروبا لتعكس الأرستقراطية الهندية حيث اكتمل بناءه عام 1912.

يتكون البناء من ثلاثة طوابق يعلوها طابقين عابرة عن مخارج وأبراج وصالات، والسطوح مغطاة بقطع زجاجية ملونة، فيما تتوزع الغرف على معارض مبهرة للصور الشخصية للأسرة ومستودعات الأسلحة والذخائر والأزياء، ويوجد بالقصر عشرة معابد هندوسية ويضاء ليلا بأكثر من عشرة آلاف مصباح.

احتجنا ساعات لنصعد الجبل المبلل بالمطر، وصولا إلى قمة المكان حيث تقع على ارتفاع 2,240 متر فوق مستوي سطح البحر، يقال أنها كانت المكان المفضل للإنجليز خلال فترة استعمارهم للهند، حيث يقضون الصيف والإجازات فيها، كل شيء حولنا رائع تقوله الطبيعة لنا في دفتر الرحلة كأنه السحر، شعرت في لحظات أنني أدخل مدينة حلمية لا أراها في الواقع، ربما سأصحو بعد قليل وأجد

المعابد.. تتخذ إبداعها الفني

أن ما أراه وأعيش تفاصيله ليس أكثر من صرح بناه الخيال في لحظة حلم، مزارع الشاي والأشجار غابات تلتصق بغابات.

استعدت طاغور، في وصفه: في الضباب المشمس، من الساعات الضجرة ، ما أبهى مرآك العظيم يتجلّى في زرقة السماء !

وحينما ودعت الهند كانت كلماته خير معبّر: "أزفت ساعة الرحيل.. إني أسافر فارغ اليدين طافح القلب بالأمل.. الطير يحلق في الفضاء لا ليذهب في تحليقه إلى الخلاء.. بل ليرجع إلى أرضه العظمى".

كان المطر ينسحب بعد ليلة خصبة.

وكنا ننسحب من هذا البلد الذي لا يمكن قراءته جيدا في ظرف أسبوعين من الزمان، إنها القصة القديمة لحضارة متعددة الأوجه أكثر من القدرة على الفهم، بديانات متكاثرة، ولغات تحسبها لغة واحدة، إنها لغة الهند، وهي تنهض من ثقل الفقر والتخلف، وتبحث عن خروج سريع من قائمة الدول المحسوبة على النامية (اي المتخلفة) لتضع قدما ثقيلة (كأقدام فيلتها) بين الدول الكبرى.

ودعت الهند، بلاد العجائب، وقد أودعت ذاكرتي آلاف المشاهد، لأمّة تكافح، وتعمل، وويل من أمة صامتة تعمل.. وتكافح، أمة لديها كل الإمكانيات على النهوض، وإذا نهضت فإن آسيا ستقلب الطاولة على القارتين، الجديدة (أمريكا) والعجوز (أوروبا) ففي الهند والصين طوفان بشري يعرف كيف يكتسح العالم، ليس من باب العمالة الرخيصة، ولا الصناعات البسيطة، ولكن من خلال دخول في شرايين العالم الاقتصادية.. واشياء أخرى.

صور خارجيه للقصر

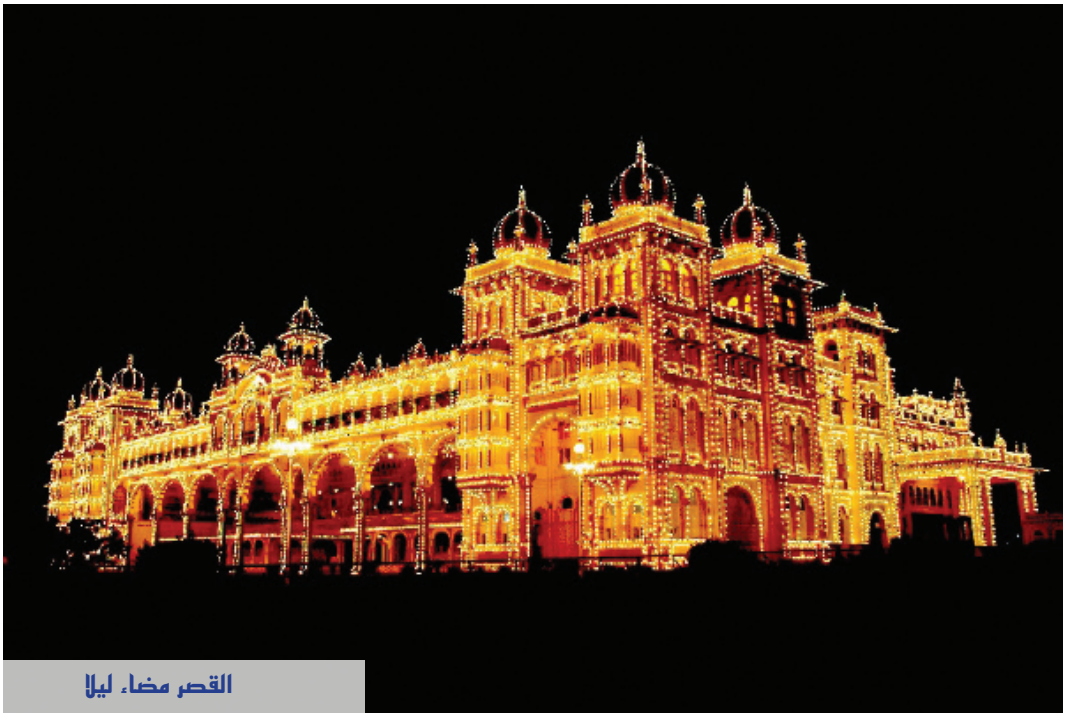

القصر مضاء ليلا

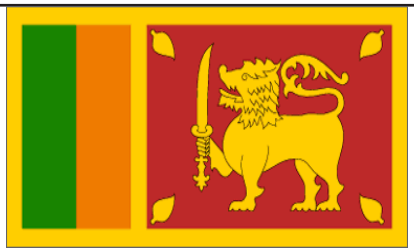

# سريلانكا..
# أرض الصدفة السعيدة

وضعت في مفكرة الارتحال الصيفي أكثر من بلاد، لأكمل الرقم عشرين في سلسلة البلدان التي زرتها في حياتي، أغلبها بحكم العمل الصحفي، محاذرا تكرار الأماكن قدر الإمكان (والإمكانية) حيث لم أزر منذ سنوات مدينة جديدة.

وإذ كانت إجراءات التأشيرة الأوروبية تضربني بشدة تعقيداتها، والمراجعات المستمرة في صيف قائظ أمام سفارات تتعامل معنا على أن كل طالب تأشيرة منّا ليس إلا (مسجل خطر) ينبغي التعامل معه بأقصى قدر من الحذر.. وإذ كانت الأمور في السفارات الأوروبية كذلك فإن سريلانكا كانت ضمن خيارات أقرب للنفس: اكتشاف مكان جديد، والصور القادمة منها محفزة، والسابقون العمانيون إليها ينصحون بالسفر باتجاهها.

تذكرت ما قاله الشاعر المصري محمود سامي البارودي الذي نفي إليها في أواخر القرن التاسع عشر كما أخبرتنا المناهج الدراسية ذلك، إذ يقول:

كفى بمقامي في سرنديب غربة  نزعت بها عنـي ثياب العلائـقِ

لا تحتاج هذه البلاد إلى (علائق) التأشيرة، بمجرد الوصول إلى المطار يمكن الحصول عليها بعشرة ريالات عمانية فقط..

وكانت رحلتي إليها موصولة بجملة مفاجآت استحقت عليها لقب سرنديب كما أطلق عليها الرحالة العرب القدماء، وتعني الصدفة السعيدة، وبالمختصر المفيد يمكنني القول أنها أبهرتني.

لم أكن وحدي في الطائرة السيلانية المتجهة منتصف ليل صيفي حارق، بل مجموعة كبيرة من العمانيين، بما يمكن اعتبارها أنها مستقبل السياحة العمانية باتجاه الخارج، وفي ذلك مؤشرات، بينها أن الأماكن المشابهة وصلت إلى درجة التشبع، تايلند وماليزيا وسنغافورة، واكتظت بالبشر القادمين من عمان وبقية بلدان الخليج العربي، وما ينقص سري لانكا عن غيرها من تلك البلدان يمكن أن يكون عنصرا إضافيا لترويج سياحة العائلة، فأرض الصدفة السعيدة بها كل مقومات الجمال.. عدا تجارة اللحم الأبيض، وما يصاحبها من حياة ليل تفيض أكثر عن قدرة بعض العائلات على احتمال المشاهد، وسري لانكا توفر خيارا رائعا للأسر العمانية.

ست ليل قضيتها في أربع فنادق في اربع مدن سريلانكية، وفي كل فندق كانت العائلات العمانية متواجدة كشقيقاتها الخليجيات.. وكنت أحسبني من القلائل الذين يذهبون إلى هذه البلاد التي يمكن القول أنها منسية سائحا، لكن المشاهد المتتابعة تدفعني لاعتبار أرض الصدفة السعيدة حاضرة في المشهد السياحي الخارجي السنوات المقبلة، فتلك البلاد نفضت عن كاهلها ثقل حرب "نمور التاميل" وبدأت في اكتشاف نفسها، يعززها حضور إنساني راق لأهلها الذين لا يشعرونك أنك غريب، بل الانحناءة حاضرة دائما، والابتسامة لا تغادر الوجه، فلا توتر أو تشنج أو استغفال في التعامل اليومي مع السائح.

جمال في الطبيعة..

وفي البشر الذين يخدمونك حفاة لفرط الاحترام.. لا تكاد تسمع أصواتهم، بتهذيب عساه يبقى دون أن تزحف عليه "رأسمالية" السياحة في القادم من أعوام.

## ملاحقات الصورة النمطية

سرت إليها بصورة نمطية تعكس بلدان شبه القارة الهندية، حيث عرّفتنا سري لانكا على نماذج من العمالة الرخيصة أغلبها ضمن عاملات المنازل، وإشكاليات الاستجلاب والهروب.

لذلك كانت أسئلة البعض تتكاثر عن سر اختيار المكان للسفر إليه، وقد بسط العالم كفيه مرحّبا، لكن المحفزات تتكاثر، هنا وهناك عرفت عن راجعين للتو من زيارتها، وآخرين يستعدون للسفر إلى أرض.. سرنديب.

كعادة المدن التي تبدأ في نسج علاقة مع السياحة فإن الخدمات لا تكون كما يفترض، سرنديب بلاد أشبه بحديقة مترامية الأطراف، تمرّ على السهول والجبال والمنخفضات فتشبعها اخضرارا حتى يحاصرك اللون الأخضر أينما يمّمت وجهك، فواكه لا تعرف أسماؤها تزحف عليك من الأرض أو من قمم الأشجار المتجاورة بمدّ البصر.. وبامتداد طريقك الزاحف بين مدينة إلى أخرى.

يشير السائق إلى اسم بعد آخر، وتحاول أن تتذكر كل هذه الأعداد، كما تحاول تجربة بعض مذاقاتها، منها ما خبرته في المحلات الكبرى التي جاءت بفواكه وخضروات من جميع أنحاء العالم، ومنها ما تراه على قمم أشجاره للمرة الأولى فتندهش من أن كل تلك الثمرة الضخمة نائمة على جذع أمها!

بلاد قد لا تجد فيها بقعة لا تتضلل بورقة من اللون الأخضر..

تتوزع المدن بمعابدها، بينها ما تسكنه أغلبية بوذية فتزحف تماثيل بوذا على كل اتجاه، وأخرى مسيحية فيرتفع الصليب حتى في المطاعم، وهناك أغلبية إسلامية كأنك في قرية مسلمة ترى فيها المساجد والمحجبات واللحى..

استمعت إلى صوت الأذان.. ومعابد بوذا متكاثرة هناك وهناك، لكنه التسامح الذي عليه شعب البلاد ، سألني السائق البوذي عن الصلاة، وأجبته معقبا بسؤال مضاد له عن صلاتهم، أنكر وجود صلاة لديهم لأن بوذا ليس إلها، وإنما إنسان، فاجأني قوله، حسبت أنهم رفعوه إلى مستوى إله يعبدونه، لكن تلك التمتمات التي يرددها كلما زرنا معبدا بوذيا كانت دلالة احترام وتقدير، وليست صلاة.

يشكّل المسلمون أقل من 10 بالمائة من عدد سكان سريلانكا، يقتسمون لقب الأقلّية مع الهندوس

معبد وسط بحيرة

جولة نهرية للفيلة

والمسيحية مع غالبية بوذية، ويبدو أن الإسلام وصلها مع المغامرين العرب، من التجّار والدعاة، وقد سمّوها سرنديب عندما وجدوا أن هذه الجزيرة قريبة من خط تجارتهم، فوجدوها أرض الصدفة السعيدة لما تتوفر عليه من مقومات طبيعية مدهشة، وقد كانت سفن العرب تجوب السواحل حاملة الأخشاب والحرير والتوابل والعطور باعتبارها واحدة من أقدم المحطات التجارية التي عرفها العرب والصينيون، لكن مع تحولات السيادة على البحار تناوب على استعمار سريلانكا، وابتداء من القرن السادس عشر للميلاد، البرتغاليون والهولنديون والإنجليز الذين فازوا بها بداية القرن الثامن عشر ليلحقوها بالتاج البريطاني، وبدت لهم مصالحهم أكثر في تشجيع الأهالي على زراعة أشجار يحتاجونها خاصة أشجار المطاط وجوز الهند والشاي بغرض الانتفاع الاقتصادي إلى أقصى حد من موارد هذه الجزيرة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سعت سيلان على استقلالها لكنها بقيت عضوا في الكومنولث البريطاني، وبقيت باسم سيلان حت عام 1972 حين استعادت اسمها السنهالي القديم لتكون سريلانكا، وتعني باللغة السنهالية النقطة المقدسة أو البقعة المقدسة، والسنهال هم أكبر وأقدم شعب يقطن سريلانكا ويعتنقون البوذية.

في كولومبو حجزنا موعدا مع المطر، وكانت السماء تمطر مع هواء شديد، لكن الناس يتصرفون كأنه لا يشيء غير عادي يستوجب اللواذ بحوائط المنازل هربا من المطر والرياح الضاربة بقوة.. على الشاطيء محلات خشبية صغيرة أعطت حياة للمكان، تقاوم الهواء الصاخب، خاصة بعد غروب الشمس حتى يكاد يقتلع الأخشاب بعيدا عن تماسكها..

جلنا قليلا في كولمبو، البحيرة التي اجتمع عشاق فيها، والمعبد يتوسط المكان كأيقونة مقدسة، بينما الأشجار تصيخ السمع إلى أصوات المحبين يتبادلون أمنياتهم ونبضاتهم، في تلك المفردات سبحت نحو الهدوء الإنساني يلقي بنسائمه على الطبيعة فيتحد معها في جمال ليس من السهل تجاوزه إلى بقعة أخرى.

## صعودا إلى نيورليا

إلى نيورليا كان الصعود كأنه باتجاه السماء، كلما قلت هذه آخر (صعدة) بدت أخريات كثيرة بعدها، حتى لامسنا السحاب ولازلنا نصعد الساعات واحدة إثر أخرى، على الطريق كانت التجارب حاضرة، تناول ثمار الأناناس الطازجة مع خلطة الفلفل، بلادن معجونة بالفلفل الحار، وبجانبي أشجار الترمبوتان مثقلة بفاكهتها، ما أرخصها هنا، وما أغلاها في بلادنا، وثمرة الجانك فروت تتدلى بوحشية فريدة، قال البائع وهو يحمل حبّة ضخمة بين يديه أنها ليست الأكبر كما تظن أيها السائح الغافل عن هذه البلاد..

كانت المحلات التجارية تتبع الدوام الرسمي في فتح أبوابها، من الثامنة صباحا وحتى الخامسة عصرا، وكانت عربات «التك تك» أكثر من السيارات، وكانت المفاجآت تتوالى ونحن نجوب شوارع سريلانكا، مصنع متخصص في منتجاته، مكونة من فضلات الفيلة، فتبدو على أكثر من شكل، بما يكفي للإصابة بالدهشة، تعظيمهم للفيل، وما يخرج منه، وقد أخذنا السائق في جولته إلى النهر حيث تغسل الفيلة أجسادها الضخمة من الماء المنساب جمالا، حتى الفيل الصغير كان جميلا بما يكفي لنسيان ضخامته وهو يتحرك مستمتعا ببرودة المياه !

اقتربنا من حقول الشاي كثيرا، وزرنا مصنعه لنتعرف على هذا السائل الجميل عن قرب، بدءا من حاصديه وهم يحملون (الجواني) على ظهورهم يلقون فيها الأوراق الخضراء تتكاثر لتملأها واحدة بعد أخرى، ومن كل خمسة كليوجرامات يستخرج كليوجرام واحد فقط، وهناك تتقسم الألوان والمستويات، شاي أحمر وأسود، نوع للعامّة، وآخر للخاصة، واحد للصباح الإنجليزي والثاني لما بعد الظهيرة.

تعد سريلانكا ثاني دول العالم المصدرة للشاي، بقيمة وصلت عام 2007 مليار دولار أمريكي، وتشتريه شركات خلط الشاي بأسعار مرتفعة، علما أن مستوياته متفاوتة القيمة بشكل كبير، حتى في المصنع الذي زرناه، فالشاي هو «نفط» سريلانكا، وعرفت بجودة شايها والفضل في زراعته يعود إلى قبطان أنجليزي يدعى جيمس هيلر عندما أدخل زراعته عام 1839، حيث جاء بشجيرات الشاي من الصين، ووجد أن نورليا المكان المناسب لزراعة شجرته حيث ترتفع ثلاثة آلف متر عن سطح البحر، ولا يتجاوز ارتفع شجرة الشاي أكثر من متر واحد، دائمة الخضرة، ويصل عمرها إلى ثمانين سنة، ويعمل

اكتشاف مبهر لجمال سريلانكا

المزارعون على تقليم فروعها وتشذيبها كل ثلاث سنوت لتنبت غصونا جديدة، بينما تحمل النساء السلال على ظهورهن خلال قطف أوراقه الخضراء.

ومستويات الشاي تحددها إرتفاعات حقوله، فكلما ارتفع أكثر ازدادت جودته، ويشير مرافقنا إلى أن السنهال، وهم السكان الأصليين لسريلانكا رفضوا العمل في مزارع الشاي تحت وصاية الإنجليز الذين أحضروا العمال من جنوب الهند، فتوافد الهندوس التاميل إلى الجزيرة مما أبقى ملكية المزارع للحكومة التي تديرها وتتصرف بناتجها.

ولأن دعم السياحة إحساس وطني لمسته لدى السائق / المرافق فقد أخذنا لمصنع الشاي، لنتجول.. ثم نشتري، وهكذا كانت دخولنا لمصنع لابوكاليه، يعمل فيه أكثر من الفي عامل، نصفهم من قاطفات الشاي، رأينا كيف تتحول الأكياس الضخمة إلى ناتج يقل عن خمس المقطوف من الأشجار، وتشحن الخلاصة إلى العاصمة حيث تعمل هناك شركات إنجليزية ويابانية تعرف كيف تضيف النكهات.

المدينة تبدو خارج سياق البلاد، تبدو على المكان آثار الاستعمارين الهولندي والإنجليزي، ولأننا وصلنا ليلا فقد أجبرني البرد القارس على اللجوء إلى الغرفة مبكرا، مستمتعا بالمنظر البديع عبر النافذة، وبالقرود التي تطل عبرها.

اقترح علينا السائق أن نذهب إلى الحديقة الملكية، وكانت الموافقة مرهونة باستئجار سيارة أخرى قادرة على اجتياز الهضاب والمرتفعات، وقبل أن تشرق الشمس كنا نغالب البرد لنمضي مسافات طويلة ذارعين الطريق صعودا وصولا إلى الحديقة المترامية حتى نهاية المرتفع الجبلي، هناك قيل لنا أنها تسمى نهاية العالم، على تلك الحواف بدا حقا للساكنين قديما هناك أنها نهاية العالم بالنسبة لهم، حيث المنخفض هائل والهواء البارد يكاد يطيح بالسياح الذين ساروا، كما سرنا، مسافات طويلة امتدت ما يقارب عشر كيلومترات، من حيث تركتنا السيارة، ووصولا إلى هذه الحافة، نهاية العالم.

## إلى منفى أحمد عرابي

بعد نيورليا كان جدول الرحلة يشير إلى مدينة كاندي، بحثت في تاريخها لأجد في أجندتها أنها كانت منفى للزعيم المصر أحمد عرابي عندما نفاه الإنجليز إلى جزيرة سيلا بعد فشل ثورته عام 1883 ليقيم

فيها حتى عام 1901، ويوجد متحف صغير افتتح عام 1983 يضم تمثالا كبيرا لعرابي مع صور ولوحات متعددة تظهر مراحل حياته، ومن كانوا منفيين في تلك الفترة، الشاعر الكبير محمود سامي البارودي وعلي باشا فهمي، ونقشت على لوحة رخامية أبيات شعرية كتبها البارودي في كاندي:

أبيت عليلا في سرنديب ساهرا

أعالج ما ألقاه من لوعتي وحدي

قد طال شوقي إلى الديار ولكن

أين من معي من أقام بكاندي

ولأن جدول الرحلة بيد السائق، أو المرشد السياحي لبلاده، فإننا وجدنا أنفسنا في مزرعة للتوابل، قال أنها الحديثة الملكية، وتمتد 85 هكتارا، فيها استعدت روائح البهارات والأشجار التي نسمع عنها، المستخدم منها للطعام أو للعلاج، الفانيلا والهال وجوز الطيب والقرفة والزنجبيل والفلفل الأسود والكاكاو والموز والمانجو والافوكادو.. وما لا يحصى من أنواع كررها على مسامعنا موظف قادنا بعد جولة بين الأشجار والنباتات إلى محل يبيع منتجات مصدرها الحديقة.. وبعد كل تلك الجولة الجميلة هل يمكن مقاومة الشراء، أو على الأقل، عربون شكر للموظف، وللسائق.

كاندي ثاني مدن سريلانكا، وأقيمت وسط غابة طبيعية، وهي معروفة بزراعة الأرز، وكان السائق يسير بنا بسرعة على طريق ضيق لا يكاد يتسع للسيارة القادمة من الإتجاه الآخر، وحين ألقينا بالرحال في كاندي كان قراره أيضا بأن نزور معبدها الكبير، زودني بوردة الأوركيد، ذات الدلالة، حيث دخلت معه المعبد في طابور طويل، لنقف أمام تاج عملاق من الذهب، تبيّن لي لاحقا أنها انعكاس مرآة للتاج الأصلي الموجود في الأسفل، حفظا له وصونا من كل مكروه، بني المعبد عام 1593 في عهد الملك فيلا مادرما سوريا، وبعد جولة، أدهشتني بالاكتشاف المثير لعادات شعوب، إلا أن المساء كانت له دهشة أخرى، عرض فلوكلوري يسير فيه العارضون على الجمر.

وفي كل زاوية هناك دهشة، حديقة الزهور حيث قيل أن بها نحو عشرة آلاف نوع من الأشجار والزهور، وأكثر من مائة نوع من أزهار الأوركيد، عدا أشجار البامبو وجوز الهند، وغيرها مما إذا لم يتناول ثماره

فإنه يتم التداوي بها.

أشار السائق إلى كلمة بنتوته، وتعني ابن بطوطة، منطقة وصل إليه الرحالة العربي المعروف، وكتب عنها ضمن رحلاته حيث كان اسمها سرنديب، لكن الاستعمار الأنجليزي أطلق عليها اسم سيلان، ثم وصولا إلى اسمها الحالي سريلانكا، لكنهم بقوا أوفياء لابن بطوطة لتحمل إحدى المناطق اسمه، وتبعد عن العاصمة كولومبو نحو 60 كيلومتر، أشار مرافقنا إلى أن الأوروبيين يفضّلونها أكثر، فشواطئها توفّر لهم رياضة التزلّج على الماء..

بين أشجار وأنهار وزهور ونباتات، ومياه متدفقة، انتهت الرحلة إلى سريلانكا، اكتشاف جميل لبلد لم نكن نراه كما يستحق، غادرتها.. لكنها لم تغادرني.

مسجد في مدينة كاندي

# تونس..
# أيتها الخضراء جئتك عاشقا

تنحت البلدان زخارفها قبل رؤيتها، تمارس عليك لذاذة الحضور، وحين تراها بعين الرؤية تستلذ بما حاصرتك به من رؤياها عبر نوافذ الروح.

حينما فكّرت في إجازة صيفية حطت تونس كعصفور أخضر جميل، وإن بدا بعيدا على سطح الخارطة، لكن الأماكن تدوس على تضاريس الجغرافيا وقتما نرسل إليها ورد العشاق، عشق التجوال والسفر.

باكرا، عرفنا الشاعر العربي أبو القاسم الشابي صاحب البيت الشهير والحكمة الرائجة: ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

ومتأخرا عرفنا أنه من تونس، وبحكم الأخبار كان اسم الحبيب بورقيبة طافيا على سطح الأحداث، لدلالات الاسم وتقلبات السياسة.

هي قرطاج والقيروان، وهي سوسه والحمامات، هكذا هي دلالات التاريخ أيضا وفسحات الجغرافيا.

حملت إلى تونس أبيات شعر حفظتها عن نزار قباني ذات يوم من أيام الطفولة الغابرة بالحنين لركوب طائرة ومشاهدة أرض الله الممتدة من الماء إلى الماء، كتب نزار عنها:

يـا تونـس الخضـراء جئتـك عاشـقا
وعـــلى جبينـي وردة وكـــــتاب
إنـي الدمشـقي الـذي احتـرف الهـوى
فاخـــــضوضرت لغـــنائه الأعشـاب.

مكتفيا بمطلع القصيدة سرت على الدرب النزاري أحمل معي وردة العشاق إلى هذه البلاد الخضراء، محترفا هوى المدن، سائرا فوق أعشاب المكان، يجتازني حنين دائم لإمتاع العين برؤية جديدة قبل أن يجف ماءها، وماء الحياة.

قيل لي عليك بزيارة سيدي بوسعيد وحلق الوادي وسوسة والحمامات والقيروان وجربة، وكلما اقترب موعد السفر زادت الأمكنة تراكما فتمددت مدة الارتحال إليها نحو 25 يوما.

قيل أن جربة بعيدة وحارة، لكنها جميلة وتستحق عناء الساعات الطوال.. وقيل أن طبرقة حريّة بزيارتها كي تكتمل الرؤية.

بعد الساعة الثانية من بدايات فجر يوشك على الحلول فوق هضاب بلادي تركت الطائرة الأرض هائمة في فضاء الله الواسع، مجتازة السحابات والمسافات، لكن خط الدرب ليس مستقيما، كان علينا المضي فوق العاصمة التركية وقضاء أربع ساعات فيها، وجه نتعداه، وجه يتعدانا، طائرة تقلع، أخرى تهبط، واحدة تأخذ مسارها المحدد لها في جداول طويلة من الرحلات ليس بينها ما نترقبه: تونس.

## يالطول المسافة

موظفة المطار التركية طرقت بأصابعها على جهاز حاسوب أمامها، قالت أنها ترى الاسم واضحا، ويكفي أنها متأكدة من وجود ما أسأل عنه وإن تعامت الشاشات الكبرى المعلقة على خرسانات، أبهرني في مطار اسطنبول استفادتهم من الضوء، فقرهم للطاقة جعلهم يفكرون في الاستفادة من طاقة الشمس، وكان لهم ما أمعنوا التفكير فيه، ولم يكن من مصباح يضيء المساحات الكبرى في المطار.. سوى نور الله الطبيعي.

لم نكن نعرف المسافة بين اسطنبول وتونس، وكانت اللغة التركية جافة كما هو شأن التعامل الجاد (جدا) من طاقم الطائرة، حتى ابتسامات المضيفين (والمضيفات) أقرب إلى أن تكون صناعية لا حياة فيها، إذن أين هي تلك الرومانسية التي حاول مهند ونور إقناعنا بها طوال أكثر من 150 حلقة تلفزيونية؟!، كأنه فاقد الشيء في الحياة الكبيرة يعطيه من وراء الشاشة الصغيرة، ومع اللهجة الشامية يغدو كل شيء محببا، فكيف وهو حديث محبين؟!

بدت تونس كلوحة انتظرت مشاهدتها على الطبيعة لا كما يحلو لزوارها امتداحها، اللوحة النظيفة الخالية من التلوث، التنظيم الأنيق، البشر السائرين بتحضر، لم نصادف ما تعاني منه مدن عربية أخرى كالمتسولين والعارضين لخدماتهم بما يشبه الإكراه.

كانت المشاهدات الأولى دالة على الوصف المسبق، فرقة شعبية ضربت الطبول وعزفت الموسيقى وسارت بتناغم الألوان وسط القادمين والمستقبلين، نفحة تفاؤل أولى بالمكان، لم يكن الطقس بما توقعت، يميل للحرارة، لكن النسمات الخفيفة لا تكف.

بدأت رحلة اكتشاف اللهجة، البناية تسمى إقامة، وتحمل بعض بناياتها أسماء أشخاص معينين، في حي النصر، وفي شارع الهادي نويره على وجه التحديد كانت هناك إقامة سلمى، وإقامة أحمد، وإقامة سعيد، وإقامة القبة حيث أقمت، المفاجأة أن جيراني (ولو مؤقتا).. عمانيين.

القلاع حارسة البحر والبشر

أحد المنتزهات في العاصمة

صادفت أحدهم قادما من "السوق" حاملا "قفيرين" أو أكثر، تعجبت منه: تشتري "قفران" من هنا؟!، أجابني بضحكة طيبة: الشيء الوحيد وجدته رخيصا، ربما نسي أنه قبل يوم كان يحمل جحة "البطيخ الأحمر"، رخيصة وبمذاق ولون رائعين.

ذات حين سألت بائع الجح أن يزن لي أصغر حبة لديه أتمكن من حملها دون أن تصنع الفرجة حولي حينما تسقط في الشارع من يدي، أعطاني واحدة تزن 12 كيلوجرام وقال لي دون كلام: احمل زادك.. وحملته بأوضاع مختلفة، مرة فوق كتف وتالية فوق أخيه، ومرة أحتضنها على خاصرتي وأخرى فوق كرشي، حتى وصلت إقامتي حارما المارة من فرجة على (جحة) تفتت باحمرار فوق الرصيف الأسود.

الدرس الأول في اللقاء الأول: على زائر تونس وضع موازنة جيدة لسيارات الأجرة، وكثير التنقل يلزمه أكثر من عشرة ريالات في اليوم يدفعها وفق ما تقوله أرقام عدادات "التاكسي".

**سيدي بوسعيد:**

نظر السائق إلى (سباعية) عائلتي وقال أنه يلزمني (زوز تاكسي)، أي سيارتي أجرة، فكلمة اثنين ينطقونها زوز أو (دو) حسب الفرنسية، تذكرت المسرحي المغربي الذي قال بأنهم ينطقونها جوج فيما التوانسة يقولونها زوز ويصححها بأنها مزيج من هذا وذاك، زوج، لم يكن التفسير صحيحا لكن صمتنا عليه.. على مضض، وتفكه.

ظننت سيدي بوسعيد قريبا من حيث الإقامة لكنها تناءت على بعد مسافة، لم تكن بعيدة لكنها كافية للإحساس بالبعد.

وجدت نفسي محاصرا بأفواج سياحية أغلبها غير عربي، ومن تعد محتشمة فإنها ترتدي نصف بنطلون، تجلى الجمال في كل شيء: البشر والطبيعة والمعروضات من فخاريات المكان وتذكاراته..

كل هذا الوهج الأنثوي يصعد دروب المكان مرتقيا إلى الذرى العالية!!

غابات من السيقان تلمع مع أشعة الشمس المتألقة، حاولت مداراة الرؤية فلاحقتني برؤياها، أخذتني دهاليز المكان، كل التفاتة هي اكتشاف ما لجمال لا يقاوم أثره، من مسافات عالية تطل زرقة البحر، لكن عبر مسامات يسمح بها اللون الأخضر، وتدرجات الارتفاع تمنح الأشياء قدرة جمالية أخاذة.

أدركت متأخرا لماذا سياح الجانب الأوروبي من البحر الأبيض المتوسط لا يحتاجون حقائب كبيرة كالتي نكدسها فوق عربات المطارات، ملابس النساء لديهم، وإن كثرت، لا تحتاج لأكثر من حقيبة يد، رجالهم يرتدون أنصاف بنطلونات، ونساؤهم أنصاف (هافات).

كان طريقي يبحث عن الشاطىء، لكن الارتفاعات شاهقة، سألت أحدهم فقال أنه عليك المشي نحو كيلومتر، وحين مشيته قال لي آخر أنه عليك أن تصعد الارتفاعات مرة أخرى، لكن كل ممشى يقود إلى ممشى، وكل جمال يأخذك إلى الأجمل منه، وكل محل يعرض لك الأجمل، وتندس وراء بعض الأبواب متاحف ومعارض للفنون التشكيلية، لكن هل يحتاج المكان إلى معرض للجمال، وفي كل فاصلة ينطق بالإبداع، واللوحات معروضة بذوق رفيع، ولا أحد يستفزّك بإكراه أن ترى معروضاته بل يدعوك بأسلوب أشبه بالتحية، ولا بائع يلح عليك أن تشتري منه مالا ترغب..

لأنك ترغب بالفرجة، وفقط.

السائح يكتفي بها غالبا، يسير بين فسحات الجمال يتزوّد بعينيه، يتحول جسده كله إلى عيون، تحاول أن تخزن ما تستطيع، لا تكف عن التلفت، وفي "سيدي بو سعيد" فتنة للتأمل والتجول، وفسحة للانبهار بالطبيعة وبمن حولها إلى تحفة، هي مزيج من التلال الخضراء على مقربة من البحر، ومن الحدائق والممرات الحجرية المستدعية لقدرة جيدة من اللياقة البدنية، ومن يبحث عن إنقاص الوزن عليه بسيدي بوسعيد: مشي بين صعود وهبوط، وأسعار مرتفعة للمأكولات والمشروبات.

يوم صائف على الشاطئ

المدن العتيقة وجدناها أيما حللنا

إبتسامة تونسية برسم الياسمين

سألت عن صحن خزفي مبهر، قال أنه بـ45 دينار، ومع كل خطوة أمشيها مبتعدا كان السعر يتهاوي خمسة بعد أخرى، ألحّ علي جمال معروضاته كثيرا، لوحات بالغة الرهافة بإحساس فنان مودعة في تلك الصحون وبين إطارات تتباعد وتتقارب على إبداع إنساني فاعل.

وصلت إلى رمل الشاطئ أخيرا.. شمس سيدي بوسعيد لا تغرب في البحر، تترك للزرقة ما يتبقى من غروب دون أن يعرف الجالسون هناك تلك اللحظة العامرة بالمشاعر حينما يغمر الماء الشمس، وتسقط رويدا رويدا في تلك البقعة البعيدة من الماء.. البعيدة دوما، في كل مكان.

مررنا على مطعم سيدي شبعان (مكان على حافة مرتفعة) وسيدي الظريف (على طريق الصعود نحو الهضبة الأعلى)، لم أعرف من هما لكن الاسمين جالبين للتساؤل.

نصحنا بائع بالعودة لتونس (العاصمة) عبر القطار، لم يكن إلا (الترام) الذي بدا لدى وصوله شبه خاو، ومع المحطات البالغة 14 محطة بينه ومحطته (ومحطتنا) الأخيرة كانت الجموع تتكدس وكأن الترام يمنع أحدا من النزول، كدنا نختنق من الأجساد المتكاثرة (جدا) وقلنا أنه لم تتبق سوى محطة واحدة لا تفصلها عن الأخريات سوى أقل من دقيقتين، لكن المسافة تمددت على شاطىء طويل سرنا بمحاذاته، وتدخل بعض المراهقين بفتح أبواب الترام المنطلق لتعبر النسمات إلينا، ولكنه المختلط بدخان سجائرهم وفوضويتهم.

## في شارع الحبيب

شارع الحبيب بورقيبة مدهش، مساحات واسعة للمشاة، ذكّرني بشارع الشانزليزيه، ممتلىء بالبشر يسيرون فوق فسحاته، وعلى جانبيه المقاهي والمجمعات التجارية، إغراء للمشي، وتأمل الوجوه، الدالة بسيمائها على البلد وثقافته، والمختزلة لأسلوب معيشته ومستواها، به طريق فرعي يسمى نهج، لا يبتعد عن فرنسا كثيرا، فهو نهج مرسيليا، والسير فيه يوم إجازة (السبت والأحد) متعة حيث الظل (في عز الظهر) وحركة السيارات قليلة جدا.

يظهر نزل/فندق افريقيا عملاقا على ضفة الشارع، وبنايات أخرى تتباين في أحجامها لكن المسارات أمامها حية بالسائرين وفي أمسيات عذبة لا صوت لضجيج المدن الكبرى فيها، ينعدم التلوث والغبار والشحاتين والباعة الجوالين اللحوحين، يسير كل امرىء في حاله، ولا يقلق المرء من سائق سيارة الأجرة للإتفاق على تفاصيل مهمة رغم تفاهتها أحيانا، فالعداد الأنيق يقول كلمته الفصل، وبعد الساعة التاسعة فإن الأجرة تزيد بمقدار النصف، يقول سائق بأن الحكومة هي التي برمجت/نظمت كل ما في هذا الجهاز، وليس لنا سوى السمع والطاعة.

في الجدول المحيط بساحة 7 نوفمبر يجلس البشر بكثافة دالة على حياة يحتاجها سكان المدن الكبرى، الشعور بالاتساع المكاني أمام أعينهم المحاصرة في مواجهة جدران الشقق والمنازل، البشر الذين قد لا يملكون ما يجلسون به على طاولات المقاهي على كثرتها والمطاعم على ارتفاع أسعارها بالنسبة لشعب دولة محسوبة على فئة الدول اللاغنية.

## اللهجة تتباين:

كان اليوم الـ25 من يوليو يشير لعيد تأسيس الجمهورية، لم يكن في المكان دلالات لافتة على ذلك، تهنئة صغيرة في صحيفة الصباح، ألقيت جل اهتمامي إلى تباينات اللهجة، الزبون (الحريف) وفي آخر إيصال تغيير العملة مطلوب "توقيع الحريف"، وزارة التربية والتعليم تسمى وزارة التربية والتكوين، والمؤسسة يسمونها وكالة، البنك المختص بالزراعة يسمى البنك الفلاحي، إعلان شركة يدعو المساهمين لجمعية عمومية، ويسميهم المنخرطين، وعلى كل منخرط أن يأتي بنفسه، الفيلم العربي هو الشريط السينمائي العربي، والكوميدي يسمى الهزلي، وبطولة الناشئين هي بطولة الأصاغر وهناك بطولة الأواسط (الشباب) والأكابر (الفريق الأول)، والمتهم يدعى المظنون فيه، والدكان مغازة.. أما الأشهر فهي على الترتيب: جانفي، فيفري، مارس، افريل، ماي، جوان، جويلية، أوت، سبتمبر، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر.

سألني الجزار إن كنت أرغب في لحم بقر أو علوش، ولأني فهمت الكلمة الأولى استوعبت التالية.

أعجبتني تنويعات اللهجة.. قسم الطواريء في المستشفى (قسم الاستعجالي)، الإعلان (الإشهار)، ممنوع الإزعاج (ممنوع الإضجار)، الواحدة بدينار والاثنتين بدينارين (الكعبة بدينار والزوز بدينارين)، موقف السيارات (مأوى).

طلبت راكبة سيارة الأجرة إيصالها إلى مقهى حيث ينتظرها هناك شخص ما، على الطريق كان هناك مقهى ليس به من ينتظر، تحدث السائق إلى المنتظر مباشرة ليفهم أي مقهى على الطريق مبتغى الفتاة، وحينما تركت السيارة قال السائق: تحيا تونس، وردّ عليه راكب آخر: تحيا غزة، فسأله إن كان يحب عمان، بدت الكلمة غير واضحة فأصخت السمع حتى سألته ماذا يعني بكلمة عمان، فرد أنه قال عومان، فالكلمة دلالة على من يذهب للبحر بقصد الاستحمام، وقصده إن غزة صعبة الدخول حتى على من يود الاستحمام في بحرها.. المخيف.

## الحوت يفرفط

على لافتة طويلة كان الإعلان بيّنا لا تخطؤه العين، حوت حي ويفرفط، حدثتني نفسي الراغبة في وجبة سمك أن استطلع هذا الحوت الذي يقدم مشويا من "مطعم سلومه ولد الحومة"، سألتهم أين يضعون هذا الحوت بما يمكنه من "الفرفطة"، كتمت ضحكة صاخبة حينما رأيت أن الحوت بحجم "العومة" وإن جاملناه قليلا فهو كحبة الضلعا، لكنه يرفع ذيله شأنه كأي حوت من تلك التي نراها عملاقة عبر الشاشات.

في حلق الوادي يقام مهرجان سنوي تبدأ دورته الأولى هذا العام، على واجهات المحلات كانت تسعيرة الحوت واضحة ضمن فعاليات المهرجان: ثمانية دينارات.

خيّرني النادل بين الحوت صاحب الثمانية أو بحجم أكبر لكنه بعشرة دينارات، ابتهجت بالخيار

الأماكن التراثية تحتفظ برونقها القديم

الثاني طامعا في وجبة سمك لا بد منها في حلق الوادي، حيث شهرة المكان بالحوت والأسماك، بعد نصف ساعة من الانتظار حضر "الخيار الثاني"، وبالفعل لم يكن حجمه أكبر من حجم الخيار، خاصة التونسي الذي له طول ولا يملك عرضا.

ذكرتني حلق الوادي بمقطع من الإسكندرية، الشاطىء المزدحم بأجساد البشر تسبح في زرقة البحر الأبيض المتوسط، والمقاهي والمحلات والباعة الجوالين، وصوت أم كلثوم ينبعث من مقهى، أطفال في عمر الزهور يبيعون الفل والياسمين الملفوف كأنه باقة صغيرة أشبه بقطعة الحلوى ذات الأنبوبة الصغيرة التي يمسك به الطفل، مجموعة باقات تغرس بشكل باقة تجمعها ثمرة كوسة فتعطي المشهد جمالية إضافة إلى الزي الموحّد للباعة، صغارهم وكبارهم، يلحّ طفل منهم على أن أشتري منه باقتين، محاولا بشقاوة طفولية معاندة إبعاد رفيقه عنا، أصرّ على عدم إعطائي نصف الدينار المتبقي حينما لمح رغبتي في الشراء من زميله، عاندته لأشتري باقة من كل منهما، وظفرت بنجاح عنادي.. وبالباقتين.

### المتلازمون:

رأيت المتلازمون في البليفيدير، حديقة حيوانات هي أقرب إلى المتنزه، قطعت التذاكر وللمرة الأولى أشعر بأمر يستوجب قيمة قليلة من النقود، على اللوحات التعريفية للطيور والحيوانات القابعة وراء أقفاصها شدتني كلمة "المتلازمون"، طائر جميل لا يعيش بمفرده إنما كل زوجين يقفان برومانسية حالمة يكتبان قصة عشق كالتي تلوّن ريشهما.. ترى بأي لغة سوى الحب يكتبان به ما يريد الزوار معرفة طلاسمه؟! هما متلازمان، وكفى.

كان الطاووس يتجول داخل الحديقة، بخيلائه كأنه يريد القول هذا أنا، النمر يتثاءب، والأسد لا يعيش سوى أطلال ملك، قال لنا العامل تعالوا اقتربوا منها، أدخلنا في استثناء مريب، كانت التجربة رائعة، على بعد سنتيمترات وقفت أمام الأسد والنمر والفهد (مع أشباله الأربعة ذات

الأعمار المقدرة بثمانية أشهر)، زأرا بقوة وكانت أنيابها بالغة الشراسة كسوطهما، لكن السلك الحديدي القوي بيننا جعلني مطمئنا.. بعض الشيء.

استحضرت مفردة حياة الغابة، دالة أبدا على شراسة حقيقية يوصم بها بني البشر، مع أن الغابة دالة على حيوات متآلفة إلى حد كبير، ودالة أكثر من أي أمر آخر على نقاء الطبيعة وفطرتها الآسرة.

## باب بحر

سمعته للمرة الأولى باب حر، أدغم أحدهم البائين حتى فك سائق سيارة الأجرة الاشتباك بتلقائية، قال أنه سمي كذلك لأن البحر كان هنا ذات يوم، عرفت أن هناك مفردة بحر.. لا حر.

سوق مغطى لا يدرك المرء إلى أين يقف به الممشى إن سار فيه.. قيل أنه السوق العربي.. المحلات متقاربة جدا، ذكرني بزنقة الستات في الإسكندرية، لكنه ممتد وكأنه لا نهاية له ومعه، أمام بوابة قديمة هي باب البحر، ولوجا إلى الزنقة الطويلة للسوق، يتكاثف الناس أحيانا فلا يجد المرء نفسه إلا مزدحما بأجساد من نساء يتكاثرن حتى يتوقف السائرون لعل الحركة تستأنف مجراها.

على جوانب الممر الرئيسي انعطافات صغيرة كأنها المنابع الهامشية تزود النهر الكبير بمزيد من الماء، والبشر لا يكفون عن الحركة، يتسع السوق قليلا لكن هجمات الباعة عليه ظالمة، المحلات تدلع لسانا يزحم السوق تعرض فيه ما ترى أنه يجذب الزبائن لدخولها، والباعة الجوالون يأخذون حصتهم من مماشي البشر الساعين للشراء أو للفرجة.

مشيا لعدة كيلومترات تحت سقف مغطى تتغير ألوانه وأشكاله، تضيق الخطوة وتتسع، أغلب المعروضات مستلزمات نسائية، وقليل منها منزلية.

خروجا من باب سيدي محرز وجدت خطواتي تقودني إلى خارج تلك الأنبوبة الضخمة بعد أكثر من ساعة مشي داخلها محاطا بروائح بضاعات ومتبضعين، مع كل انعطافة أسأل عن شارع الحبيب

من الأسواق التقليدية

نقوش ترسم فسيفساء الجمال

مدخل لأحد الأسواق

ويا للمفاجأة، عدت لباب بحر مرة أخرى، كإطلالته الأولى قبل ساعتين من الزمان، وهو الواقف خارج المكان والزمان.

## بين قرطاج.. ودحدح

زيارة تونس دون قرطاج ناقصة، لكن زيارة قرطاج حل النقص بها، هكذا شاء الحظ السيء، الشمس وهي تنتظر الساعات لتغرب لم تسمح للسائرين تحت وهجها للاستمتاع بما لدى قرطاج من مسارح وآثار، أرشدني أحدهم إلى منتزه قرطاج، كان خاويا، وشجراته لا تلقي الكثير من الظل، هناك الجامع ومأوى/ موقف السيارات حيث الحافلات السياحية تأتي وتروح دون وضوح هدف، بحثت عن الهدف تحت وهج الشمس بلا فائدة، في الجانب الآخر من المنتزه، وحيث سيارات الأجرة تمر بندرة، وإن فعلت فهي مكتفية بحمولتها رأيت سياحا بدا أنهم أوربيون، تبعت ما يصورنه، كان هناك مكان أثري عبارة عن صهاريج ضخمة بدت كأنها اكتشفت من تحت التراب، لم أجد من أسأله عنها، وأجبرتني الشمس على الرجوع لمحاولة البحث.. عن (تاكسي).

ثنائيتي (التاكسي) والشمس تكررا مع جارتها دحدح، بعد أن تفنن السائق في إظهار مهاراته خاصة على المنعطفات والدوارات وما يصاحب ذلك من أصوات احتكاك العجلات وصلنا إلى مبتغانا، كان المكان مغلقا، والانتظار رفيق دائم للمسافر، قيل أن هناك بحيرة، وتحت الضوء المشرق (جدا) لم تكن الانعطافة تسمح إلا بالقليل لعاشقين يسرقان المتاح كلما خلا الممر الطويل والمتسع من عابريه.

بين رؤيتين نهارية وليلية بدت البحيرة في حالة مختلفة، تكاثر السامرون عليها حينما غابت الشمس وقد كان المشهد خاويا قبل حين، البحيرة والمطاعم الكثيرة المصطفة في شبه دائرة قريبا منها تبدو كأنها جزء من ممر الطائرات، مطار قرطاج تونس على مرمى حجر، وهكذا الطائرات حين عبورها فوق الجالسين في فضاء المطاعم تبدو على مرمى.. حجر.

السير على ضفاف البحيرة ممتع، وفي العتمة الخفيفة والأنوار المنعكسة على مياهها تتوغل الصورة

في الحلم فلا يدرك السائر بخفة جمالية أن المياه ضحلة جدا، يكتفي بالرؤية المتخيلة لسطح الماء دون التفكر بعمقه.

## النحلي وعسل المكان

كلما قيل متنزه تذكرت وهج الشمس، والفراغ الحائم حول أشجار لا تمنح الظل بما يكفي السائر بجوارها.

هذه المرة اسمه النحلي، نسبة إلى النحلة التي صادفنا وجودها بين الممرات الطبيعية للمتنزه، كلما أوغلت في المشي اكتشفت روعة الطبيعة، وكلما أنهيت جملة جميلة انتبهت إلى أنك تنجز قصيدة تولد مع المكان، كأنك في غابة كثيفة النباتات تحاول اكتشاف الممرات الصغيرة، إن أردت بإمكانك صنع ممر خاص بخطواتك، لكن ما تركه السابقون من مماش يدفعك للسير على خطاهم، الجبال باخضرار مهيب تحف بالمكان، والرؤية من عل تظهر المدينة السابحة في سكون شمس تسعى للمغيب.

في بقعة تتوسط المتنزه شمخت أشجار الصنوبر عالية، مخلفة ظلا ظليلا، وهواء عليلا، وألقى الإنسان ببضع كراس وطاولات اسمنتية تيسر الجلوس في حلق الطبيعة ومن أراد ممارسة الرياضة فكل أمر محفز على الإنطلاق عدوا أو هرولة، حسناء تعبرنا بهمة نعجز عنها لتكمل معجزة أخرى مع المكان، لا شيء ينقص اكتمال الحسن كما هو وضع الطبيعة من حولها، لم أدر أيهما محظوظ بالآخر: المكان، أم هي؟!

ذلك التوحش في الطبيعة يمنح المرء إحساسا بالذوبان في فطرة الفضاء من حوله، الإحساس بأنه مندمج مع موروثات ومخبّآت قادمة من البعيد، الطفولة وأشياء لا تحصى تراكمت بفعل السنين.

يوليو يكاد ينقضي، النسمات تنبعث باردة من وراء الأكمات، ونصف قمر في العلية يحفز على

السهر، لكن الطبيعة تكتسي بسواد الليل، ومن عرف اخضرارها لا يقبل باللون الحزين حيث الليل يلقي رداء سواده على الكائنات جميعها.

في زيارة تالية تشاقيت لأبلغ قمة الجبل حيث رسم اسم المتنزه باللغتين العربية والانجليزية، حسبته قريبا من المتناول، لكن الموانع الجبلية والنباتية جعلت من الوصول مغامرة ممتعة ومضنية، الكلمات قريبة في المتناول لكنها وكأنها ترتفع كلما اقتربت منها، من الأعلى كانت المدينة في متناول العينين، كاشفة عما وراء الجبال المحيطة بالمتنزه وصولا إلى البحر القابع وراء المدينة، مشهد ساحر غسل ما خلفته رحلة الصعود من إرهاق وجروح، البقعة الخضراء تتشكل في دائرة متسعة، طائرة هليوكبتر تبدو موحية حينما ننظر إلى مروحتها من أعلاها، من فوق ارتفاعات المكان.

خلت أن رحلة النزول دائما أسهل، لم أفطن إلى أن الهبوط قد يعني السقوط السريع، تقع وأنت متجه للقمة مشرف جدا، وأفضل بمراحل من أن تقع وعينيك إلى الأسفل.

لم أقع، لكنني فطنت إلى أن الهبوط سريع جدا رغم إنهاكه للجسد، بينما كان الاتجاه للأعلى موح مع كل خطوة تتجه صوب الـ"فوق".

العودة كل ليلة إلى حي النصر، وبناياته التي تشكل فيما بينها سدا حيث لا فواصل بين هذه وتلك، والإشارة دوما إلى الجامع، يقال أن الكويتيين بنوه، لذلك لم يكن غريبا أن تكون قبته كأنها واحد من أبراج الكويت الشهيرة.

## اللواج حتى بنزرت

قال موظف في السفارة العمانية في تونس وقد مضت عليه سنوات عشر في هذه البلاد أن زيارتها لا يكفيها النظرة السياحية فقط، هناك حي التضامن بما فيه من وجه يتيح للزائر معرفة كيف يعيش مليون شخص في أكبر حي في افريقيا (حسب قوله)، سألته عن الجزء الجميل في هذه البلاد، ذلك

إطلاله من سيدي بوسعيد

ما يعنيني كسائح بصدد الكتابة عن المكان بجماليات الكتابة لا فتنة التحقيق الصحفي، ردّ الشاب بأن عدم زيارة بنزرت ستجعل الكتابة ناقصة.

قال أنه عليك باللواج ينقلك إلى بنزرت، ستجده في محطة اللواجات في باب سعدون، واللواج حافلة صغيرة تتسع لثمانية ركاب يتم حسابهم بالشخص، أما الحافلات الكبيرة فيسمونها الـ(كار).

في تجارب تالية أدركت أن سائق سيارة اللواج يلتزم بالقانون إلا إذا وجد دنانير إضافية، يمكنه حينها إيصالك بعيدا عن المحطة المفروضة عليه.

كلما خرجنا من حدود المدينة/العاصمة ازدادت الخضرة كثافة، ثم تحولت إلى غابة من اللون الأخضر، وصولا إلى بنزرت، كانت الجبال ترتفع بجمال أخاذ، وفيما تودع شمسها وراء أشجار الجبل الكثيفة كان قمر شعبان يطل مكتملا من الجانب الآخر.

قال السائق أنه يمنع دخوله للمدينة إلا باستئذان الإدارة، ومضى بنا إلى الشارع البحري، رافضا أخذنا إلى وسط المدينة مستخدما كلمة اكتظاظ للتعبير عن الزحام، وحين حان دور الحساب قال أن الثلاثين دينارا (نحو عشرة ريالات عمانية) للنقل من تونس إلى بنزرت، أما الدخول إلى جوار البحر فيستدعي قيمة إضافية، والعودة إلينا مرة أخرى للعودة إلى باب سعدون كلفتها 50 دينارا، وحينما عاد كنا في وسط المدينة حيث دخلناه بحافلة ضخمة اشبه بحافلات المطارات، تتشابه المدن في تفاصيلها الداخلية، الفاترينات التي تعرض الملابس والمنحوتات الخشبية والتذكارات البحرية إلى جانب المطاعم التي تتناسخ فيما بينها وكأنها ذات المدينة لولا الشكل الخارجي الذي تطل منه على زائرها.

مدينة متأنقة لا تختلف كثيرا عن الأمكنة المجاورة للبحر كحلق الوادي وغيرها، على مقربة من الصيادين جلست أراقب حركتهم، كان صيدهم جيدا، بصنارات وشباك صغيرة الحجم، الأسماك التي تخرج من فم الماء أكبر بكثير مما شاهدناها في مطاعم العاصمة، يضعها أحدهم في كيس بلاستيكي فتكاد تمزقه وهي تتحرك والبيع فورا، وبقيمة مناسبة جدا.

مماشي الشارع البحري واسعة ومبهجة، مع هواء بارد يعطي النفس إيحاء بأنها أشهر الصيف هذه فكيف بها والشتاء يطل على المكان؟!.

سيارة تحمل مكبر صوت تعلن عن الفعاليات الثقافية والفنية مع أسعار تذاكرها، كما شاهدت الأمر في حلق الوادي، وتكرر لاحقا في طبرقة.

## طبرقة.. ما أجملك

ساعات مضت نرقب الوقت أن يمضي، إلا أن سائق الحافلة الكبيرة متمهل كثيرا، الطبيعة تحاول أن تغرينا بما وهبها الله، تلال من زيتون وأخرى جافة وقد جزّ منها العلف، سألت رفيق سفر عن كيفية ري كل هذه المساحات، فقال أن الله يرويها، تعتمد على الأمطار فقط، لكنه كاف لجعل كل تلك المساحات خضراء متبتّلة بحمد المولى على ما أعطى.

قال آخر أنكم تمتلكون الثروة والبترول، لم يصدق أن ما لديهم نعمة ليست أقل من نعمة البترول، وأن السياحة التي تعتمد عليها بلادهم ثروة لا تنضب كما نحن مهددون بما يواجهه الذهب الأسود من نفاد أو هبوط قيمة.. وأحيانا حتى ارتفاعها يأتينا بمصاعب كالتضخم.

عبر الهاتف حاولت إيجاد مأوى بين فنادق المدينة لكنها ألقت بثقل القلق على رأسي، وفيما كانت الحقائب تخرج من بطن الحافلة وجدت من يشير إلى بأني بين نزلين، أحدهما يطل على تلة جميلة يبدو كقصر، لم أكن أنوي سكناه لأنه يخدش حياء الجيب، لكن وجدت سعره رخيص مقارنة بكل شيء فيه، وأهمها حسن التعامل، قادني موظف الاستقبال إلى واجهة زجاجية حملت تذكارات من شخصيات زارت المكان، قرأت العربي منها، مكتوبة بخط دريد لحام وفائزة أحمد..

من أعلى تطل المدينة بسحر لا يقاوم، تلالها الخضراء من جهة والبحر من الجهة الأخرى، ينام البحر بوداعة متناهية وكأن النسمات لا تستطيع خدش سكينته.

زحام الوجوه في سيدي بو سعيد

يا تونس الخضراء

من الحلويات التونسية

طبرقة، مدينة تنعم بسلام تحسد عليه بين بحر وجبل..

البحر والجبل يدخلان في قاموس السياحة بشدة، وكمدن أخرى في تونس توجد بها منطقة ترفيهية صغيرة لعائلات المدينة تضم مجموعة ملاعب صغيرة لكرة القدم وكرة اليد وغيرها إضافة إلى ألعاب للأطفال، تجاور البحر، على مقربة كان مرسى السفن، حملتنا سفينة خشبية صغيرة تدعى حنبعل إلى رحلة بحرية قيل أنها مع الغداء، وتجاوزا عن الكلمة فإن قطعة البطيخ الاحمر الكبيرة جعلتنا ننسى عينات الوجبة الرئيسية.

أشار قبطان السفينة إلى جبل يلوح ليس ببعيد، قال أنها تلك الجزائر، وهذه القرية الصغيرة وتسمى ملّولة آخر قرية تونسية، أبهجني المكان الواقع بين حدود بلدين عربيين، وفيما كنت أستطلع الجزائر من بعيد كان هواة الغطس يقفزون من السفينة، وبملابس البحر ذاتها كانت الصبايا يرقصن على (حبّه ونص) في طريق العودة.

### سوسه تتكلم.. سياحة

هي مدينة بحرية تتقن المكر، متجاوزا فوضى محطة القطار، وارقام تذاكر المقاعد التي لا توجد إلا رقما في التذكرة، والوقوف بانتظار مسافر يهبط في محطة لأرث منه مقعده، متجاوزا عن صاحب سيارة الأجرة الذي حينما رأى الحقائب قال بأن النزل/الفندق قريب يمكن للمرء أن يمشي المسافة الموصلة إليه، واسأل حسب الحجز عن فندق فينكس لكن يقال الجالسون على المقاهي أنه لا يوجد هناك في المكان نزل بهذا الاسم، حتى إذا اقتنع صاحب سيارة أجرة بحمل الحقائب ومعاملتها على أن كل واحدة منهن شخصا يتوجب دفع المزيد من الدنانير..

كنت سأحتاج نصف يوم من المشي للوصول إلى ما ادعى سائق أول سيارة أجرة توقف لي أمام المحطة أنه قريب جدا، ألقيت برحالي في فندق فنيق، والذي سألت عنه باسمه الأجنبي حسب الحجز، وفي طريق الرجوع بعد يومين أصر سائق آخر أن لا يأخذ في سيارته أكثر من حقيبة،

ودوره أن يتفرج عليك وأنت تعمل في حمل الحقائب وتنزيلها.

رأيت ما يشبه القطار بعربتين أو بثلاث عربات، يسمى التوك توك، يمر كثيرا في الشارع القريب من البحر، يوفر فرجة سياحية جميلة كونه مفتوحا على الرؤية في جميع الاتجاهات، كان لا بد من تجربته، قيل أنه يحمل البشر إلى القنطاوي، أو ما يعتبرونه المدينة السياحية، أمام حنبعل بارك توقف الجمع، خيّرني سائقه بين التجوال في مدينة الملاهي أو العودة معه بحكم أن تذاكري ذهابا وإيابا، فاخترت الأول ودخلت إلى الحديقة/ المدينة، أسواق ومطاعم وألعاب ونوافير توفرت في هندسة توزيع جميلة على مسافات المكان، وكلما زادت عتمة المساء تدفق البشر أكثر، وتألق الليل بنصف قمر في السماء، وبأقمار لا تحصى تسير على الارض فينعكس بهاء القمر على الأجساد شبه المكشوفة.

كأنه اتفاق ضمني، في عربة ما يوجد بين الركاب من ينثرون البهجة على البقية وللعابرين الذين يوحد بينهم من يتفاعل فورا مع طقس الفرح الغنائي والتصفيق.

الممشى المحاذي للبحر ذكرني بـ"شط اسكندرية"، حيث اقتعاد الحاجز الاسمنتي لعائلات وأفراد، في "شط سوسة" لم يكن إلا بائع "الفوشار" و"اللوز المغطى بالحلويات" يتواجدان بتكرار رتيب، أما بقية المشروبات، الساخنة والباردة، فتركت لمطاعم يقدمونها لمن يستطيع الدفع، فأغلبها مطاعم تتبع الفنادق المتكاثرة أطوادا شامخة كأنه مطلوب منها منع الهواء أن يصل بقية المدينة، لكن هواء سوسة منعش، قادر على النفاذ بقوة جميلة.

كان لا بد من وسط المدينة، إلا أن سوسة تمتلك قلبا لا يشبه المدن التونسية الأخرى، لديها باب بحر كالذي في العاصمة، لكنه الباب الداخل إلى مدينتها العتيقة المسورة، البضائع الحديثة على واجهة السور القديم، تتفرع دروب السوق بين قلاع وحصون وأسوار، ونسيم البحر يصل بروائح الموج، أجزاء منه كأنها منقولة من السوق العربي في تونس العاصمة، لها ذات السقف والتعوجات.

## الحمامات

في محطة (اللواجات) في سوسه طلب مني سائقه دفع مبلغ إضافي على حقائبي مع أني دفعت أجرته كاملة بزيادة عن عدد العائلة، وخيّرني بين أن يهز آخر (والهز بالتونسي تعني الأخذ) أو أن أدفع مقابل الحقائب، قلت له يا عزيزي هز من تشاء، وستجدني صابرا، وكانت حسنته أن جنبني مسرحية سيارات الأجرة في سوسة، طلب زيادة عدة دنانير لإيصالي حيث أشاء، ضاربا بالقوانين عرض الشارع طالما أن كسرها يحقق منفعة لما أسماه الإنسان الضعيف.

من فوائد سكنى سوسه أنها وضعتني قريبا من المركز الثقافي بالمدينة، وهو ليس له من اسمه شيئا، فقط لأنه يتضمن مسرحا تقام عليه فعاليات مهرجان الحمامات الثقافي الدولي، وكانت هذه الدورة تحمل رقم الـ46، والأمر الأخر هو وجود منزل قديم يسمى دار سباستيان، وهذا يمثل أصل الحكاية.

سباستيان هو ثري روماني قدم إلى تونس قبل الحرب العالمية الأولى، أي في عام 1971، واشترى 14 هكتارا حولها إلى حديقة بالغة الجمال، لا تزال أشجارها معمرة وممراتها شاهدة على هذا الثري الذي جعل من بيته مزارا جاء إليه خصوم الحرب العالمية في زيارات متفرقة، جاء إليه الألماني رومل، ثعلب الصحراء، كما جاء إليه مونتوجمري بطل معركة العلمين في مصر والتي شهدت انتصاره التاريخي على ثعلب الصحراء، وجاء إليه تشرشل.

يقول صابر الدراجي، موظف بالدار، أن الحكومة التونسية اشترت هذا المكان من صاحبه عام 1960، وحولته إلى مركز ثقافي يحتضن فعاليات المدينة الثقافية والفنية ويستقبل زواره برسوم تبلغ 6 دنانير.

الشواهد عميقة الدلالات، هندسة الحديقة وما في داخل البيت من آثار تبيّن كيف أن هذا الثري الروماني كان يعيش، وحمامه تحفة هندسية تحيطها مرايا من ثلاثة اتجاهات، وبين أقواس الاستراحة يبدو حوض السباحة، وعبر المدخل يمكن التجول في أرجاء البيت الصغير وصولا إلى باب البيت من

من الأسواق القديمة

جهة البحر، ولصاحبه القديم صورة كبيرة إضافة إلى تمثال نصف وآخر نصف دائري له خاصية غريبة فالانف تبدو متحركة كلما تحرك الرائي وكأنه يلتفت إليه.

من بقايا الدار طباخة ألمانية يقال أن رومل أحضرها عندما زار الدار، وبجوارها خزانة أمريكية كون أن زوجة سباستيان من الولايات المتحدة. كل مدينة لها وسط، مكان صاحب بالبشر والساحات والمطاعم وما أكثرها..

محلات بيع التراثيات التونسية تكاد تتشابه بمعروضاتها، ومحلات (السي دي) تعرض أحدث الأفلام في دور السينما العالمية، ادفع نصف ريال إن كنت تريدها بالغطاء، أو بـ300 بيسه أن اكتفيت بغلاف بلاستيكي من النوع الذي يغلف به أي قرص ممغنط عادة.

ووسط مدينة الحمامات به متسع من المساحات المجاورة للبحر، ويتشابه مع تونس (العاصمة) وسوسة أن السوق العتيق في مكان أثري، وهناك باب للبحر دائما، وقلعة مسورة على جدرانها تتوزع بضائع السوق.

تبعت خطواتي في مسيرها بين الجدران التي تترك مساحة صغيرة فقط للعابرين بينها، قادمة هي من تاريخ بعيد، الصخور تكتب أبجدياتها وكأن على قشرتها لغة نقشها مرور السنين عليها، قال فتى أن لكم (سوما) خاصا لأنكم (هزيتوا) كأس الخليج، وعندما عرف أننا من عمان أعطانا تخفيضا لأننا أخذنا البطولة الخليجية.

أغلب المحلات تعتمد على شطارة المشتري، ما قيمته 25 يمكنك أخذه بخمسة، جربت الأمر، هناك قياس لجنسية السائح، الأوروبي متفاوت بين من يعرف عنهم البخل والآخرين الأثرياء الذين لا يبالون، السائح الخليجي نادر، الليبي يأتي في المقدمة ومع الجزائري.. بحكم الجوار، وكانت تونس الملاذ لليبيين حينما حاصرهم العالم بسبب أزمة لوكربي، بضع ساعات بالسيارة فقط لقطع المسافة الفاصلة بين البلدين، وبالنسبة لساكن العاصمة الليبية طرابلس فإن تونس أقرب إليه من بنغازي في ليبيا.

## سفينة القراصنة

سفن خشبية تختال في صفحة المياه المجاورة، كان أحدهم قد نصحني بتجربة التجول بضع ساعات على هذه السفينة، يسمونها سفن القراصنة، تتخذ شكلها وتحاول تمثيل بعض حركات لصوص البحر، بثقة عرفتها في هذه البلاد صدقت بأن الرحلة خمس ساعات، لكنها كانت في أقل من نصف هذا الوقت، ولم تكن حكاية الساعات الخمس إلا كذبة (سياحية)..

فور انطلاق السفينة من مرسى ياسمين الحمامات يبدأ مجموعة من الشباب (بينهم فتاة) في صعود قمة الصواري عبر الحبال الشبكية، مستعرضين مهاراتهم الجسمانية في الدوران والتدلي، وحينما اشتعلت الموسيقى اشتعلت الأجساد بالرقص، ومن بنصف (هدوم) أصبح على رأي عادل إمام (لابس من غير هدوم)، وطاف الراقصون ظهر السفينة يحاولون إشعال الحماسة فيمن أخذهم الخجل بمنأى عن حفلة الفرح هذه، آثرت بطن السفينة قريبا من زرقة الماء، كان ساحل المدينة عامرا بمبانيه التي لم تعرف ناطحات السحاب إنما الهدوء الجميل.

تركت السفينة فور وصولها المرفأ، من على حافة اليابسة راقبت حركة رفاق الرحلة يتفاعلون مع أحد طاقم السفينة كأنه قائد جوقة، وأنا مدير ظهري لكل ذلك تذكرت حكاية الساعات الخمس التي اختزلت لنصفها، وغداء المشويات الذي لم يكن سوى إصبعي مقانق مع خبز وسلطة، تذكرت فوضى الهجوم على ذلك الذي قيل قبل قطع التذاكر بأن الطعام في بوفيه، وكانت صور المشويات جميلة على الصور!!

ليس ببعيد كانت المدينة تتأنق..

الصفاء العمراني يتألق في أسواق ياسمين الحمامات، مبان بإطار تراثي شكلت محلات تجارية ومطاعم (ما أكثرها) ومدينة ألعاب ترفيهية، كان الإبداع ناطقا من مدخل المكان حيث مجموعة من الفيلة الضخمة عليها محاربين وهي تماثيل تبدو حارسة للمدينة، ثم الدخول في أجواء بعضها شبه أسطورية كمغارة علي بابا، ومن مدخل إلى آخر تبدو الساعات قليلة على الفرجة، الجمل يقوده رجل بثياب

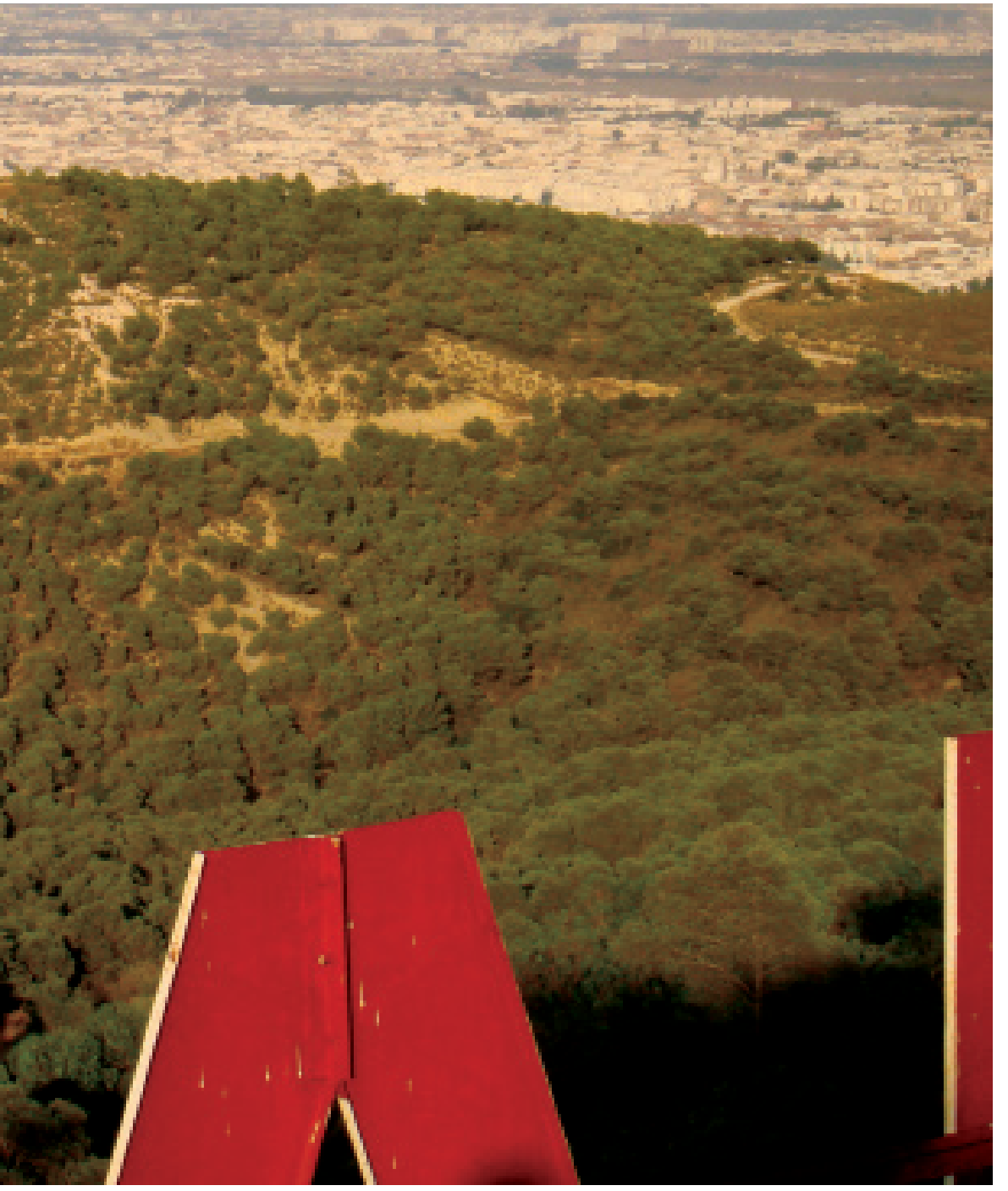

العاصمة كما تبدو من أعلى
قمة في منتزه النحلي

عربية قديمة يعرض على السواح فرصة امتطاء سفينة الصحراء، وآخر يداعب الأفاعي، وتأتي فرقة من شباب وفتيات يموسقون المكان ويقدمون استعراض الرجل الذي يختال وهو حامل لعدة أوان فخارية، ينسحبون لكن يبقى وهج المساء ونسماته حاضرة بقوة لتنسي المرء أن الدنيا صيف!!

هي مدن لم تغرها حكاية الأبراج السكنية والبنايات ناطحات السحاب، عرفت كيف تتأنق لتنال ثقة ملايين السياح سنويا.

على الجانب الآخر لاح مبنى كتبت على لافتته مركّب تجاري، تذكرت حكاية المركب الثقافي، وأيقنت أن المركّب يأتي بمعنى المركز.

## كأنه الوداع

تركت المدن التي تتشابه فيما بينها إلى حد بعيد، والناس الذين يمزجون عربية فصحى مع عامية غامضة باللغة الفرنسية التي لا يزال لها حضورها في ثقافة المكان..

المطاعم ترفع قائمة محتوياتها بأربع لغات، غالبا لا توجد الغربية بينها، لا توجد مطاعم الثقافة الأمريكية ككنتاكي وماكدونالدز وغيرها، فالثقافة الغذائية تنحاز لفرنسا وإيطاليا، والبيتزا كل يدعي معرفة صناعتها، وعلى طالبها تحمل مفاجأة أن تكون بيتزا حقيقية (كالتي في الإعلان) أو مجرد رغيف كبير رشّت عليه مكونات البيتزا حتى تكاد تتساقط.

تركت الناس الذين يسألوننا عن بلادنا، فنقول عمان، ويردون فورا بكلمة الأردن، وإذا قلنا لهم أننا من الخليج، قالوا أنهم يعرفوننا جيدا، تتبعنا دول مجاورة أو نتبعها!!

نحيت السفر جانبا، وعدت لبلادي.. كم اشتقت إليها، ولم تكف عن المجيء إلى أحلامي كل ليلة.

## وحين عدت..

بعد سنوات من هذه الرحلة قادتني أقداري مرة أخرى إلى تونس، لكنها بعد ثورة الياسمين، وقد عشت لذة اكتشافها مرتين، في زمن زين العابدين بن علي وزمن جاء بعده، وتصادفت الزيارة الثانية مع تسليم المحمودي إلى بلاده ليبيا، وما صاحبها من تجاذبات سياسية عميقة بين أفراد الحكم أنفسهم دعت إحدى الصحف إلى وصف ما حدث بمسرحة القصة وتوزيع الأدوار بين القابضين على السلطات.. هي أزمة الشك وانعدام الرؤية التي تعقب عادة الثورات.. هذا إن صحت التسمية إنها ثورات، وحسبي أنها انتفاضات المحرومين والمظلومين ضد الديكتاتوريات قام بها الشارع بدون رؤية أبعد من مشهد تغيّر الجالس على الكرسي.

تجولنا، قدر ما سمع الوقت لنا، لم أشاهد صور بن علي كما شاهدتها في زيارتي السابقة.. لكنه كان متجولا بين أذهان الناس كثيرا، يجري إلقاء الحبر الأسود على كامل المشهد السابق، ليبدو أسود، وكلما اقتربت المشهدية من الإسلاميين يكون الحبر أشد كثافة وقتامة. بين أمس تونس، وحاضرها.. عشت الفوارق والمفارقات، والتجاذبات، والأمنيات، ما أمكنني ذلك، في أيام كان الجلوس داخل فندق الإقامة أطول زمنا من السير في شوارعها، لكن الحديث إلى أبنائها لا ينقطع عن فوارق الزمنين، وعن أمنياتهم التي يخشون عليها من التفتت على موائد السياسيين الذين قطفوا ثورة الشباب، وساروا بها يأخذون بزمامها.

قال لي أحدهم ممتعضا من الفوضى: الثورة جاءت لتجد وظيفة ولقمة عيش للمحروم منها، لكن الكل يريد غنيمة منها، ومن لم يجد مطلبه أضرب عن العمل، ومن خرج عن القانون يرى في السجن معتقلا جديدا في زمن ثوري لا يعترف بالمعتقلات، فتسير المظاهرات من أجله، الذين أرادوا الدولة السائرة بالقانون لا ندري أي قانون يريدون تفصيله لهم، وتأخذ الدولة به، مع أنهم يعطلون مصالح آخرين، ويضربون اقتصاد البلد الذي يعاني بقوة.أردت استعادة الأمكنة التي رأيتها قبل أعوام قلائل، ولأنها جميلة اقترحتها لمنظمي الحدث، هكذا أخذونا إلى سيدي بو سعيد، وإلى المدينة العتيقة.

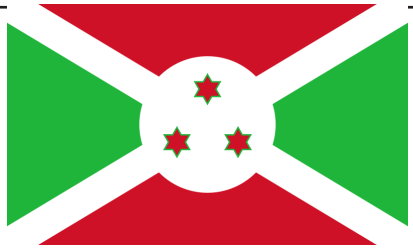

# بروندي..
# الجمال القلق

على غير موعد تطل القارة السمراء على أجندة المسافر وهو يعدالمدن التي عبرها والشوارع التي اجتازها بين مدينة وأخرى.صوب مجاهل تغوص في عمق الغابات والبحيرات؛ تطل على شاشات الفضائيات كأنها جمل منسية لتخبرنا عن انقلاب عسكري او صراع طائفي أو مجاعة تدمي صورها القلب. شيْ ما جذبني إلى التفكير في تلك البقعة من العالم؛ غير الخطوات العمانية التي تركت بصمتها وأدخلت الشرق الإفريقي إلى تاريخنا قديما وحاضرا. وجدتني أفكر في بروندي.

متخذا من فعالية ثقافية عمانية سببا للذهاب نحو تلك البقاع وقد بقيت معتمة في دفتر سفري رغم أن القمر العماني أضاء مساحات من ليالي افريقيا ولا يزال.

احتجنا ست عشرة ساعة بالطائرة لنعبر المسافة التي جربها أجدادنا وهم يكتشفون القارة الافريقية حينما لا طائرة هناك تجتاز المدن ساعة اثر ساعة.. عرفت أقدامنا السير على تراب أديس أبابا الإثيوبية وفق شروط الترانزيت؛ واكتحلت أعيننا برؤية نيروبي الكينية من خلال باب الطائرة حسب المتاح به خلال ساعة انتظار.وبعد طول انتظار أطلت بوجمبورا؛ الاسم الذي احتجت وقتا لاحفظه؛ كان مطار

العاصمة يحمل اسمها؛ شكل بسيط وأنيق سرنا إليه مشيا قاطعين المسافة بينه وسلم الطائرة ملتقطين ما تمكننا من الصور؛ متكدسين في صالة الوصول الصغيرة.

كنت أتوقع أن أجد بروندي صبية سمراء لها سحرها الإفريقي الجذاب لكنني لم أتوقع أن التقي امرأة بالغة الحسن ترتدي معطفها الأخضر وعليه نقوش عمانية تركتها أصابع التاريخ دليلا على من مروا هنا.. عادوا إلى منابتهم الأولى أو بقوا مخلصين للأرض التي احتوتهم يوم ان كان المهجر غواية عمانية تنشد الترحال طلبا للقمة العيش أو التجارة أو الاكتشاف.

منذ قرون وقرون لم يكتفوا بالمحيطات ليمخروا امواجها ولا خدعتهم السواحل ليزهدوا فيما وراءها من جبال تخفي خلفها جنان خضراء لها غوايتها مهما بدت محاذيرها وصل «الموا كرابو» وتعني العماني العربي إلى سائر البلدان مستقرين فيها.. قالت لهم بروندي كاريبوو. أهلا وسهلا بالعربي القادم من وراء الجبال والبحار راسما لاقدامه دربا لم تعرفه خطوات العابرين قبله؛ ألقى برحاله وكتب سيرته على التلال الخضراء والسهول الممتدة.. عانى وصمد.. وقاوم غربته ومحنته.. لكنه انتصر في كثير من الأحيان.

## لؤلؤة أفريقية

بوروندي، بلد صغير في وسط القارة السمراء، إحدى الجمهوريات الواقعة ضمن هضبة البحيرات العظمى حيث تطل على القسم الغربي الشمالي من بحيرة تنجانيقا، تحدّها من الشمال رواندا، وشرقها وجنوبها تنزانيا وفي غربها زائير، خضعت للإستعمار الألماني في نهاية القرن الماضي حيث أضيفت للمستعمرة الألمانية تنجانيقا (حالياً تنزانيا) وبعد الحرب العالمية الأولي وضعت تحت انتداب بلجيكا في سنة 1382 هـ، وأعلنت بها الجمهورية بعد عامين من استقلالها. "تبلغ مساحة بوروندي 27,800 كيلومتر، وتشرف أرضها من الغرب على حافة أخدود شرقي أفريقيا وحيث بحيرة تنجانيقا، ثم ترتفع أرضها مكونة سلاسل جبلية بركانية، يصل ارتفاعها إلى أكثر من ألف وثمانمائة متر، ثم تسود أرضها

هضبة تمتد حتي حدودها مع تنزانيا، وأبرز أنهارها رويزيزي وهناك روافد عديدة تصل إلى نهر كاجيرا، أول منابع النيل من الجنوب" وتطل العاصمة بوجمبورا على بحيرة تنجانيقا، مساحة هائلة من المياه العذبة تمتد نحو 600 كم2.

مناخ بوروندي ينتمي إلى النمط الاستوائي الرطب، وتشتهر باعتدال الطقس حيث تبلغ الحرارة في المتوسط 28 مئوية، فيما يتساقط المطر بها في موسم الأمطار سبعة أشهر، ذكرتني بموسم الخريف في صلالة، مطر ناعم في الغالب، على أرض مخضرّة، رغم سواد الحروب والصراعات في هذه البقاع الجميلة.. من نافذة الغرفة الفندقية أرى لوحة من الجمال، لكن أمام بابه مرّت بضع نساء ومعهن أطفال، على رؤوسهم حمل من الحطب، وأحمال من الفقر، كيف يجوع من يسكن بلاد كهذه، كيف يصاب بالعطش في أرض هكذا الماء فيها.

التركيبة السكانية فهي مكونة من قبائل الهوتو بنسبة 75 بالمائة، والتوتسي 25 بالمائة، وتعد اللغة سواحيلية لغة التجارة في بوروندي ويعرفها غالبية السكان، وتشكل العربية منها 60 بالمائة من مفرداتها، وقد تسمع كثيرا كلمة قريبو، وتعني تفضل، أو حسب الطريقة العمانية عندما يدعوك أحد لزيارته باللهجة المحلية: قرب.

تشير الإحصائيات إلى أن نسبة المسلمين في بروندي 10 بالماة، بينما تشكل الديانة المسيحية (الكاثوليك) 60 بالمائة، والنسبة الباقية 30 بالمائة لمجموعات مسيحية مختلفة، وتشير المصادر إلى أن الإسلام وصل إلى بروندي قادم من شرقي افريقيا على يد العرب، خاصة العمانية حيث ازدهرت الدعوة الإسلامية فيها خلال عهد سلاطين زنجبار.

## يوم جديد

كان الصباح يأتي بشمس يوم جديد على بروندي التي آوينا إلى وسادتها بحلم اكتشاف ماذا تخبي هذه السمراء دوننا من أسرار؟.

مدينة يسكنها اللون الآخضر والتاريخ الدامي

مدينة يسكنها اللون الآخضر والتاريخ الدامي

مررنا بقصر أول رئيس من عائلة الهوتو؛ امدي داي.. قتلوه فكان قصره قبره.. حيث دفن فيه؛ وكان الموت أيضا من نصيب بطل الاستقلال روجا سورا وقد مررنا ببيته الذي قتل فيه أيضا، قريبا من ضفاف بحيرة تانجنيقا العملاقة ؛ إنما على مقربة من كل ذلك نسينا إحالات الموت في أجندة بروندي؛ وصافحت وجوهنا كل ذلك الامتداد الهائل من شريان الحياة في بحيرة تانجانيقا؛ ثاني أكبر بحيرات العالم؛ على رمل ساحلها تمدد شبان باجسادهم البائسة حيث لا يطلبون أكثر من لقمة عيش.. بينما البحيرة تبدو كبحر عذب في مدينة لا تحتاج مياهه كثيرا حيث الطقس استوائي ممطر على مدار العام.

سرت في سوقها الذي ينطق باللغة السواحيلية سوكوني، متجولا بين عدد كبير من البضائع، ولافتة تلك التماثيل الخشبية الصغيرة بأسعارها الرخيصة، فيما ازدحم سوق الخضار والسمك بالوجوه التي تعيش ثقافة المكان، ناظرة بعين الترقب لوجوهنا التي تبدو مختلفة بما يدل على أنهم من العرب الذين جاءوا من البعيد ليعيشوا عقودا بينهم، كانت النساء يحملن أطفالهن على ظهورهن يرقبن آلة التصوير، ويضحك البعض سرورا أمام العدسة، شعرنا ببعض الرهبة من تحلق مجموعة من الشباب خلفنا، وكان علينا مغادرة السوق الشعبي المزدحم، والجانبي، إلى الشارع الرئيسي حيث يمكن السير بجوار محلات الإلكترونيات.

كانت المدينة تختال في ناظري بين وضوح وغموض، أسرار البر الافريقي والرهبة من السير وحيدا، وكانت أشجار المانجو متدلية بثمارها اللذيذة، وقلة من الباعة يتناثرون على جانبي الطريق يبيعون الفواكه.

دروب تغالب فقر المدينة لكنها نظيفة؛ نظام سير يحترمه الجميع؛ حزام الأمان اجباري كما يحدث في أي مدينة متحضرة؛ هدوء حيث لا تكاد تسمع صوت الناس الذين تتباين الأرقام في حساب عددهم؛ ربما ثمانية ملايين نسمة في بلد صغير كان مع رواندا المجاورة دولة واحدة.

قلنا لسائق سيارة الأجرة نريد حيث مرّ العمانيون من هنا، لقاء تلك الوجوه الحائرة بين وطنين، عمانيون بلا جواز سفر، جاء اجدادهم قبل عقود طويلة مرتحلين من الوطن الأم، بعضهم عاد وآخرون لا يملكون أوراقا رسمية يثبتون بها عمانيتهم التي تبدو بعيدة كلما مرّ العمر أكثر.. وأسرع في منطقة اسياتيك؛ وتعني مكان سكنى الآسيان، ويقصد بهم غالبا المهاجرون من الهند وعمان، كنا نتجول بين مساجد المكان الثلاثة.. كل مذهب له مسجده؛ اباضية وسنة وشيعة؛ وكانت المصادفة التي ستجمّل بقية اليوم حينما سمعنا كلمة السلام عليكم بعربية صافية؛ جمال عمر قاسم... القادم من الهند مختارا بروندي وطنا؛ وعمل في قطر؛ والمتزوج من عمانية، وله منها ثلاثة أبناء. وكان التجوال ممتعا بين ردهات الأمس حيث نرى المكان صورة من دروب عمان القديمة.. الشوارع والدكاكين وبساطة الناس.

جمال يبدو عمانيا كونه أقام بين المهاجرين من السلطنة؛ يعرف تاريخ وجودهم في بروندي؛ يعدّدهم واحدا واحدا؛ يقول انه يوجد منهم حاليا نحو مائتي شخص وبينهم التجار والأثرياء؛ في منزله وتحت شجرة بيذام عمرها أكثر من سبعين عاما شربنا القهوة العمانية؛ كما تعرفت على نكهتها؛ ودخلنا بيته الذي كان أول بيت يشيده عماني؛ ذلك المهاجر الذي يحمل اسم سالم بن عمير الطوقي؛ وصل بروندي عام 1850، لا يدري أحد أي ريح قذفت به إلى عمق افريقيا، فيتبعه عدد من أهله ومواطني بلده. قال لنا عن دكاكين السوق واحدا بعد آخر حيث جلس العماني تاجرا كأنه في قريته في المضيبي أو إبراء أو أدم، هذا دكان «علي الطوقي» والد الزميل والصحفي حمود الطوقي، وذلك دكان خاله، ومحطة البترول التي كانت لذلك الاسم القادم من عمان، وتلك منازلهم، بقي قليل منهم والبقية عادوا إلى أوطانهم، أو رحلوا عن الحياة.

شاركنا الجلسة ، تحت ظل شجرة كبيرة في حوش البيت، شابان أشار جمال إلى أنهما عمانيان.. لكنهما بلا جواز، تأملت كيف يكون المرء في حيرة كهذه، أن تكون من بلاد لا تحمل ورقة لتعود إليها، وهي أوراق تأكيد الهوية، بدونها لا اعتراف بتلك الهوية، الضائعة بين بلد يعرفه آباؤك أو أجدادك ويعترف بهم،

من مساجد العاصمة بوجمبورا

دكان يعكس بساطة البائع .. والبضاعة

الدكاكين التي غادرها أصحابها .. العمانيون

منزل أول عماني استقر في بروندي

وتبقى أنت الحائر بعيدا عن وطن ترى حقك فيه، وترغب أن تعيش فيه كأي مواطن آخر، وتغادر الوطن الذي غادر إليه من قذف بك إلى رحم أرض افريقية لا ترى فيها فرصة حياة كالتي تحلم بها لا ينحصر العمانيون في حارة واحدة؛ إنما يتوزعون على مناطق عدة؛ ومن مناطق سكناهم مسيكاتو نسبة إلى مسقط.

إشكالية الهوية لم يمض على وقوف بضع عشرات أمام فندق مقر إقامة مؤتمر الدور الحضاري العماني في دول البحيرات العظمى المنعقد في بروندي قليلا من الوقت حتى رددت وسائل التواصل الاجتماعي صدى ذلك الصوت على مسافات تتجاوز مياه البحيرات والبحار، واضعة من الأسئلة ما يصعب الإجابة عليها كون أن مسألة عدم منح الجنسية العمانية لنحو مائتي شخص في واحدة من دول المهجر العماني قديما ليست واضحة الأركان بما يكفي للشرح والتفصيل، فهناك مطالبات قديمة، تقابلها عدم استجابة من حكومة السلطنة، وفي المطالبات بعض حق.. وفي عدم الاستجابة مؤكد محاذير تمتلك أيضا.. جانبا آخر من الحقيقة، وبين الحق والحقيقة يتطلب إضاءة سريعة لما يمكنني مشاهدته، والحضور على بعض تفاصيله.

ليس جميع المطالبين بالجنسية العمانية ينتمون إلى أصول عمانية..

ولكن من المحتمل جدا أن تكون مطالبة البعض شرعية، وفي أحوال كثيرة إنسانية بما يفوق القدرة على التفريق بين مستحق وغير مستحق، دبلوماسي عماني لم يشأ ذكر اسمه في حواراتنا الجانبية أشار إلى معاناة أسر عمانية في زنجبار (على سبيل المثال.. والجوار) بعد عقود من المطالبات، وضياع حقوق بين بلد لا يمنحهم هويته، وآخر هو الأصل (كما يرون) لا يمكنهم من العودة إلى ترابه الذي تركه الأجداد ذات حين من الدهر، لكن مسؤول بروندي كبير تجنب التعليق بشكل مباشر على القضية، معتقدا أن مسألة عدم وجود هوية لديهم يتضمن الكثير من المبالغة لأنهم يتنقلون بكامل الحرية، ولديهم أعمالهم التجارية، وترويج وجود مشاكل لديهم بسبب مسألة الجنسية ليس صحيحا تماما.

يخالفه في ذلك سلطان، عماني يقول أنه يتم ترحيلهم أكثر من مرة خارج حدود بروندي لكنهم يعودون ضمن مفهومي الهروب والتهريب، وبوساطات من منظمات دولية تعمل في تلك الأصقاع

الافريقية، سلطان يفكر في عمان، ولذلك يريد التعلق بأدنى قشة أمل تعينه على فتح باب ينفذ إليه صوب بلاد يحبها، ويرى تربتها هي الأجدر باحتضانه، كأنما بروندي هي غربته لا وطنه الذي عرفه أكثر من خمسين عاما هي عمره حتى هذه اللحظة.

دخلنا إلى تلك الحارات البسيطة، والحياة الأشد بساطة..

واستمعنا إلى وجهات نظر، من داخل تلك البيوت، عمانيون يزورون بلادهم بتأشيرة، وهناك من فقد أوراقه الثبوتية فتعقدّت رحلته إلى الجنسية التي يحلم بها، المسؤول البروندي يقول أن هؤلاء يريدون حياة أفضل في عمان، ومسؤول في جهة حكومية عمانية تجنب الشرح المطول لكنه أشار إلى نقطة بالغة الحساسية، تداخل بعض ذوي الأصول العربية في مسألة المطالبات، فالحياة في تلك البقعة الفقيرة من العالم لا تشبه حياة دولة تمتلك ثروة نفطية، والأهم تنعم بأمان لا يتوفر في تلك البلدان، وجميعهم يستعيد قضية الصراع بين التوتسي والهوتو، مليون ضحية خلال سنوات من القتل على القبيلة، وكان القتلة يجتثون الحياة من البشر بمنتهى البرود، يدخلون على العائلات فيذبحونها فردا فردا، وببشاعة يعجز عنها حيوان الغاب.

اكثر من قول أكد على أن عدد العمانيين في بروندي، الذين لا يمتلكون الجنسية ولا أوراقا رسمية، أقل من مائتي شخص، ويبدو عددهم ليس كبيرا، لذلك تبدو الحلول ممكنة لتقريب وجهات النظر أولا.. أو وضع الحلول الوسط مؤقتا بما يحفظ لأولئك كرامتهم وإنسانيتهم، ويحفظ لعمان أمنها وحقوقها في ما يخص بحقها في منح الجنسية لمن يستحق، وليس لكل من يدعي.. أنه يستحق.

في بروندي مجال واسع للاستثمار، يقول مسؤول بروندي، ويطابق قوله أكثر من رؤية من بين العمانيين أنفسهم هناك، وتلاقت مع حديث دبلوماسيين عمانيين يعملون في تلك البلدان التي يواجهون فيها هذه المطالب، من تلك الحلول بقاء أولئك المطالبين بالجنسية في تلك البلاد مع حقهم في زيارة السلطنة في أي وقت يشاؤون، ذلك البقاء يحتّم دعمهم لإنشاء مشاريع صغيرة ومتوسطة تخرجهم

من دائرة الفقر، وتعطيهم الحق في معيشة تحفظ آدميتهم وهم يعرضون قضيتهم وبؤسهم على مسامع العالم من كونهم عمانيين نسيتهم بلادهم.. ليست من أجل مساعدتهم لحفظ الوجود العماني في تلك البقاع البعيدة فحسب، بل وفاء لأولئك الأجداد الذين قطعوا تلك المسافات في أدغال افريقيا لينشروا الإسلام ومعه التسامح والمحبة والوئام، وهذا ما أكده الرئيس البورندي الذي لمسنا في كلماته احتراما كبيرا لأولئك الذين أدخلو الإسلام فكانوا، عن حق، رسل سلام.

## حضور عماني متسامح

كانت كلمة الرئيس عنوانا عريضا للمكانة التي غرسها العمانيون في قلب هذه البلاد القصية داخل البر الافريقي، أشار إلى أن منازل العمانيين بقيت ملاذا آمنا خلال الحرب الأهلية بين التوتسي والهوتو، يوضح الوسيط (وهو بمرتبة نائب رئيس الجمهورية في بروندي) د. محمد روكارا خلفان (وهو يتحدث العربية بطلاقة) أن الزعماء في بروندي يرسلون بشكل مستمر وفودا رسمية إلى عمان للاستفادة من التجربة العُمانية في معظم المجالات، مشيدا بجلالة السلطان المعظم والحكومة العمانية التي «وقفت في مواقف كثيرة وممتازة مع الحكومة البوروندية في جوانب سياسية واجتماعية» مشيرا إلى أن «الحكومة في جمهورية بوروندي تعتبر سلطنة عُمان وحاكمها شريكا لها في عدة مجالات".

يصف روكاري جلالة السلطان قابوس المعظم بأنه «رجل السلام" لما يمتلكه من حكمة "في التعامل مع كثير من المعطيات والأمور والمشاكل التي تحدث في العالم، والحاكم الذي يعمل بصمت كما انه الرجل الكريم" مشيرا إلى أن العلاقات العمانية البوروندية شهدت تحسنا كثيرا وملحوظا في الآونة الأخيرة، ونستطيع ان نقول بان هناك علاقات قديمة منذ زمن بين البلدين، كما ان هناك بوروندين يعيشون في سلطنة عمان وعمانيين يعيشون هنا في جمهورية بوروندي، ولكن في الوقت الحاضر العلاقات تعززت كثيرا" منوها بالانفتاح الكبير الذي أبداه جلالته على الأفارقة وخاصة للشعب البوروندي.

المرآة.. ثقل على الرأس.. وعلى الظهر

يشير روكاري إلى أنه بعد الحرب اعتنق بوروندیون الدين الإسلامي لأنهم رأوا فيه دين المحبة والتقارب، بعد الحرب كثير من القبائل أتت إلى المناطق التي يعيش فيها المسلمون وهناك لم تكن عنصرية ولا قتال من أجل القبلية، فتعايشوا مع المسلمين، منوها بوجود مئات المساجد في بوروندي، كما أن هناك برامج إذاعية يومية لنشر الدين وكذلك برنامج التصالح والتعايش بالسلامة والتقارب بين الأديان المختلفة لتكون هناك محبة وتسامح وتصالح بين الأديان.

يشرح روكاري مشاكل افريقيا، ومن بينها بلاده بروندي أنها تواجه أزمة القبلية في السابق، لكنها الآن تعيش مشكلة التطرف الديني، فبعد الحرب الأهلية استفادت القبليتين التوتسي والهوتو أنهما خاسرتان في معركة لا رابح فيها، يضيف: «الانتماء القبلي يشكل خطرا على العالم والذي يحدث الآن في العالم لهو أمر مؤسف للغاية. وما يحصل في أفريقيا حاليا ليست مسألة قبلية وإنما مسألة دينية، ويرى العالم ونحن نرى في شرق أفريقيا وشمالها ووسطها يتقاتلون من أجل الدين وهم يعتبرون الدين القبيلة، ونحن نبذل جهودا كبيرة لإيجاد التسامح بينهم ليعشوا بسلام. في السابق كانت هناك القبلية ولكن الآن أصبحت المشكلة ما تسمى بالتطرف الديني في الإسلام والمسيح وكل هؤلاء مشكلتهم إنهم لم يدرسون ويتدارسوا الدين دراسة عميقة تماما، كل الديانات تدعو إلى المحبة والتسامح والتقابل بينهم ولكن المشكلة بأنهم بعضهم يأخذ بعض النصوص من القرآن الكريم والإنجيل ويتشدد عليه".

يرى المسؤول البروندي بوجود مستقبل جميل ومشرق لافريقيا في مختلف المجالات، إنما تحتاج إلى التعليم «ولكن المشكلة انه كلما أردنا أن نجتهد للخروج من مشاكل الفقر نجد تقاتلا جديدا بين المسلمين والمسيحيين وبدل ان نفكر في كيفية تطوير قارة أفريقيا، نحن نفكر كي نعالج المشاكل الدينية والقبلية، ودائما أقول وأكرر لا ينجح أحد في قتل أخيه، وأفضل طريقة للنجاح هي الجلوس معا وإدارة حوارات بناءة".

الفن الافريقي ..إيقاع الحياة

# زنجبار..
# أرض القرنفل.. والسلاطين

بدا لي الأمر أقرب الى دخول حالة تاريخية مدهشة.. التراجع عنها ليس واردا، سادرا في غيّي حيث اتبع التاريخ كمستكشف نسي حاضره وولّى وجهه صوب الماضي..

اليوم خيالي الواسع، والأمس عبوري الممكن. تأخرت عن زنجبار كعادتي مع المدن التي تسحبني إليها عنوة.. مستعينا بخرائطي الذهنية القديمة لعبور المسافة بين ساحلين لا تصل بينهما سفينة شراعية وقودها الهواء، ودروبها همم الرجال، تمخر الماء بكل وجل تقاوم غدر البحر، بل خمس ساعات من التحليق جوا كنورس عملاق اختار مساره.. وطار.

زنجبار علقتني بها طويلا، منذ جلجلة الكلمة في اذني طفلا عن راحلين إليها وعائدين منها..

رأيتها في سمرة الوجوه، وسمعتها في لكنة الألسنة، وقراتها في عناوين مجد، حيث البرتغاليين يجمعون آخر ما تبقّى من تاريخهم الإمبراطوري هاربين تلاحقهم سيوف اليعاربة..

وحيث يبدأ السيد سعيد بن سلطان يعلم (السواحل) أبجديات حضور عماني، رافعا استّة مجد على ذلك الساحل البعيد.

يممت وجهة سفري نحو زنجبار، ومعي، في جرابي حكايات من ذلك الزمن العتيد، يقولها المغامر العماني الأول حين وضع قدمه على (البر) وقال هنا سأصنع تاريخي.

لم تكن زنجبار منفى مع رحلات العمانيين إليها بحثا عن لقمة عيش وتجارة.. حين حاصرتهم فتن الحروب الأهلية والقحط والمجاعات..

كانت وطنا احتضنهم ورعاهم. زنجبار هي قصة التداخل بين حضارتين، عمانية آتية من خلف البحار.. وإفريقية تغازل الغزاة والمستعمرين والتجار والمغامرين.. هي حكاية إنسانية لا تكفّ عن المزاوجة بين أقدار الحاضر وتبعات الماضي.. تقاوم تستطيع الانفلات مما حدث لأن الانصهار أقوى من محاولات فصل الأقدار عن بعضها البعض، عمانيون في زنجبار.. زنجباريون في عمان..

هذا الرحم المتداخل عبر مئات السنين علامة لا تنقطع تروي زمن امبراطوري وضع عمان وزنجبار في كفة تاريخية واحدة.. ربما تغيرت معطيات التاريخ وحسابات السياسة.. لكن الدم الذي جمع الجنسين العربي والأفريقي عصي عن تغيير سماته، وسيبقى يوجّه بوصلة القلب العماني صوب الساحل الأفريقي كما هي بوصلة أولئك الذين يشعرون انهم عمانيون رغم أنف الأوراق الرسمية.

هكذا يضغط التاريخ على مسافات أقطعها بين ساحلين، كأنما عام 1964 أسقطه الزمن من حساباته، وأن السلطان جمشيد لم يقل "كواهيري" لعاصمة ملكه.. وملك آبائه واجداده.. وأن ضحايا المذبحة الرهيبة لم يكونوا هناك عندما غدر بالحضور العربي في جزيرة كانت قبلة العالم التجارية، وعرفت المدنيّة قبل أن تدركها حتى مدن أوروبا.

أحاول الخروج من عنق التاريخ لأمدّ عنقي قليلا من نافذة الطائرة علّ البحر أسفلها يخبرني أين مات السيد سعيد بن سلطان، سلطان مسقط وزنحبار.. حيث كان يتنقل بين عاصمتي مجده.. يخبرني عن أية بقعة انتظرت جثمانه ليبكيه بيت الساحل وبيت المتوني.. وآلاف البيوت التي أدركت أن مجدا عربيا مختوما بقوّة إمبراطورية عمانية يتراجع صوته على صدى الفرقة بين الأبناء.

وحين حطت الطائرة العمانية على مدرج المطار، مطار عبيد كرومي، بطل الإستقلال لدى أصحاب الأرض، والسفّاح كم تسمّيه أبجدياتنا، همس التاريخ في اذني.. وقال: هنا زنجبار التي ترقّبت رؤيتها، مبللّة بماء المطر، الخصب الذي لاحقه بنو وطنك حينما يبس الزرع وجفّ الضرع، كانت خطوات باتساع بعيد تفصل بين مدرج الطائرة ومبنى المطار مشيتها في دقيقتين، لكن الزمن مضى بي نحو قرنين، إنما المبنى فاجأني ببساطته، كل ما حولي دال على مكان لم يدخل العصر الحديث بعد.. دخلت في زحام البحث عن الحقائب بين وجوه لوّنتها قارات عدة أرادت اكتشاف المدينة / الجزيرة، لكن البدائية حاضرة وكأن شوارع المكان تتوق إلى زمن كانت فيه زنجبار لؤلؤة أفريقية تشدّ إليها رحال تتعدد بتعدد المقاصد.

ليت لي مئات الأعين تقرأ الأمكنة العابرة خلف زجاج السيارة، السلاطين العابرون بين قصور ومزارع وحكايات تنقش سطورها ملوّحة بأيادي من ضوء، تماما كما رأيت في الحارات مطرح حيث الصور تأتينا عن ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.. كان التاريخ يمشي معي يلقي علي عباءته رغما عن حاضر أريد أن أراه دون ضغط الأمس متشكّلا غشاوة على بصري وضبابية على بصيرتي.

البسطاء يسيرون على دراجاتهم الهوائية وأطفال يتراكضون خلف بؤس الحياة والطقس يرشّ عطره فلا تعرفه الأرض كما نعرفه.. واللون الأخضر يتبتّل أمام نواظرنا فنعيد تلك النواظر صوب الأمس.. المهاجرون الذين عبروا البحر وجاؤوا.. جماعات تتبع أخرى، هذه المدينة لا تكفّ عن المطر بينما هناك بلادهم قاحلة والمجاعة تلاحقهم.. هنا الزعفران والقرنفل والأرض المرتوية بغيث لا ينقطع.

تسمى زنجبار «بستان أفريقيا الشرقية» ويبلغ طولها 85 كلم، وعرضها حوالي 40 كلم، وتتميز بأرضها الحجرية التي تصلح لزراعة الأرز والطلح والمهوغو والجزر والحبوب، وفيها حوالي مليون شجرة قرنفل، ويقطعها نهر مويرا.

وكانت قصيدة نزار قباني عن غرناطة تقف معي أمام بيت العجائب وتختال زهوا على شرفات بيت

لقطة من الطائرة لزنجبار

الساحل كأنّي أرى السيدة سالمة تترقب حضور والدها، وترقب مجيء عمتها عزة بشخصيتها القوية تحافظ على المسافة بينها كزوجة من سلالة السيد السلطان وزوجاته الأخريات مما جادت به نساء الأرض. استيقظ التاريخ أمامي كما رأيت في قصيدة نزار يقظة مؤلمة ألقتها الفتاة الغرناطية على فؤاده فسار خلف دليلته.. ووراءه التاريخ كوم رماد، وفق الوصف النزاري العميق.

ما أغرب التاريخ كيف أعادني  لحفيدة سمراء من أحفادي.

لا تزهو القصور بدون حضور السلاطين ولا تجمل الشرفات حينما تغيب سيدات القصر وصباياه، كان بيت الساحل موغلا في ذاكرتي منذ أن تتبعت المصادر لأكتب روايتي "السيد مر من هنا"، وسألت دليل الرحلة عن بيت المتوني، قال إنه يبعد عدة كيلو مترات عن هنا.

كانت جدران بيت الساحل خجلة تحت وطء سير الزمان على بياضها.. كأنما تعبت من التلويح للبحر أن يعود سيد البحر من رحلته الأخيرة.. لكن على مقربة منه ينام السيد في قبره.. ملتحفا بالمجد، كانت النخلة بجواره تقف حيّة كأنما تحرس الجدث، وتحاور الزوار نيابة عنه، حيث تتحرك السعفات حزنى كلما هبّ من الفرضاني.. نسيم. من خلف الباب المغلق أتسلل ببصري، معي نزار ايضا:

الزخرفات أكاد اسمع نبضها  والزركشات على السقوف تنادي

على الساحل كانت القوارب تمرح على حواف الماء كما يفعل الصغار والشباب.. وجوه كثيرة تشبهنا، صوت الأذان يرتفع من مسجد السيد حمود بن أحمد البوسعيدي.. قريبا من البحر.. قريبا من القلب.

## مطر يسفح ماء التاريخ

في الصباح التالي ألمّ بي فرح ما تبقّى من بقايا مطر تناثر على الدروب، أستعيده قطرات تعرفها بلاد "بر الزنج" حيث لا حاجة لاخضرارها أن يسقى سوى بالمطر.

يأخذنا الشيخ عبدالله البحري أمين عام جمعية الاستقامة الزنجبارية إلى مشاريع وأفكار وطموحات تعمل عليها الجمعية لنشر العلم ومساعدة الفقراء، يأخذنا إلى بيوت العمانيين الذين صمدوا في وجه التهجير ومحاولات تفريغ زنجبار من العنصر العربي.. خاصة العماني على وجه التحديد.

حدثنا الوالد حميد المعدي عن مغادرته قريته في بسيا بولاية بهلا عام 1948 معايشا ما حدث عام 1964 من مجازر رهيبة. يقول ان القتلة جاءوا من البر التنزاني، يشيرون إلى تنزانيا على أنها البر.. حيث البحر يحيط بهم من كل الاتجاهات، حكى مع التمر والقهوة ذكريات عبرت عقودا من السنين والعمر.

مررنا بمنزل الشيخ مسعود الريامي ومجموعة من منازله التي صودرت في فترة الإنقلاب ثم عاد لشراء ما أمكنه منها، الأبواب والنوافذ والجدران تكاد تنطق بما مرّ على الأمكنة من أحداث. وعبرنا المنزل الذي أقام فيه الشيخ محمد المنذري مدة 18 عاما، وبجواره المسجد، هو القاضي وممثل السلطان برغش.. إعتزل في منزله كل تلك السنوات بعد تعيين الإنجليز للسلطان حمود حيث يرى أن السيد خالد بن برغش أحق بالحكم، فاعتبر أنها اصبحت أرض نصارى..

شدّني فندقا أنيقا، قيل لي أنه كان مقر الجمعية العربية، وصودر أيام الإنقلاب ثم بيع في مزاد علني ليكون فندقا هنديا، جلنا في منطقة فوجا، منطقة راقية بها رائحة أيام السلاطين، كما تضم المحكمة العليا، وبين الجدران تعبرني حكايات تتقافز كفراشات جميلة، ومرات تنقضّ كغربان ناعقة من سواد تلك اللحظة المفصلية بين ما قبل عام 1964.. وما بعده.

كانت الحارة تقول أن جدرانها الشامخة هي الباقية من أيام المجد العماني، معمارها يقاوم، الأبواب والنوافذ تميّز منازل العمانيين، دخلنا مسجد المحرمي.. أول مسجد رفع أذان صلاة الجمعة في شرق افريقيا منتصف الثمانينيات وشكّل انطلاقة جمعية الاستقامة، من نافذته في الطابق الثاني كنيسة تطل، كانت أرضا لمن بنى المسجد لكن للتاريخ تحوّلاته.. وللوقائع.. أحوالها.

شموخ النارجيل، واتساع البحر

القلعة البرتغالية.

بيت الساحل آوكما يسمى حاليا متحف القصر

كان الوالد سليمان بن خلف الجابري يتكّيء على ثمانينيات عمره ويقول انه ولد هنا، واستقر منذ عام 1973 إماما لمسجد السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي زوج زمزم بنت السيد سعيد بن سلطان الذي اعيد ترميمه وكان شاهدا على مذبحة عام 1964.

التقينا بشاب كيني أسلم وبقي يتلقى دروسا في مساره الجديد الذي اختاره وقد فعل شاب مثله قبل سنوات ما فعل ليدخل الإسلام على يديه عدد كبير بينهم والداه.

عبرنا الحارة الهندية بأسواقها حيث تحفز الحكومة على توسيع حضورهم بمواجهة الحضور الإسلامي لسكان المدينة الأصليين وأغلبهم مسلمون.. وعبرنا كنوز الأمس بعبرات كعابر بين زوايا الأندلس، كانت المدينة تضم سكة للحديد عام 192، وفي بيت العجائب رأينا المصعد..

في مرحلة الاهمال تحول بيت العجائب إلى مخزن للأسمنت، وكذلك بيت الساحل، أنقذهما بروفيسور هندي مسلم قضى حياته في زنجبار فبدأ مشواره الصعب ليستعيد البيتان رونقهما.. ولو قليلا.. كان بيت العجائب يدعو للعجب، لفرط فخامته قديما.. ولما عليه حاله اليوم، ككل التاريخ العماني الذي سار على هذا التراب منصهرا في الحجر والبشر، التقاء جعل من أرض القرنفل فتنة أمام التجار والمغامرين.

المطر الذي صافح صباحنا لم يكن كافيا لغسل بؤس الوجوه الغارقة في تناقضات تواجهها.. كل ذلك الجمال في الطبيعة لا يكفي البشر السائرين في دهاليز الفقر وضعف البنية الاساسية، وتلك الفنادق والمنتجعات التي يقال انها تتجاوز الألفين لا تنعكس على وجه المدينة.

الطرقات معجونة بالطين، الحفر الغارقة بمياه الأمطار، والبحيرات الصغيرة الحافّة بالشوارع، والمنازل البسيطة العاجزة عن إشعال قناديلها ليلا، حتى إذا حان المساء إرتدت عتمة المكان، وواجهت قدرها الذي اعتادته كأنما هو الواقع العادي.

زنجبار التي يأتي إليها المستثمرون من شرق الأرض وغربها لا يصيب ندى ملايينهم سوى جيوبهم التي لم تعط لانسان المكان ما يستحقه.. وبقي العربي / العماني الكائن المريب في التجوال حيث القوى الجديدة / القديمة تحاصره ليكفّ عن محبة مكان لا يشبه اية أمكنة أخرى.. وقد تجمّلت حاراتها بقصور السلاطين ومنازل الرعيل الذي أسس للحظة اندماج إنساني كأنه حدث البارحة.. كان التعليم والنظافة مضرب المثل، وقوة الاقتصاد دالة عليها المباني المقاومة لجريان الزمن رغم تعاقب السنين قرنا إثر قرن.

ليس ببعيد، القلعة بعمق التاريخ، تصمد في وجه البحر والحكايات المختلفة حول مرجعيتها.. قالوا إنها برتغالية، وقالوا أن المكان بقي على حاله كيوم غادره آخر السلاطين.. وسمعنا عن تداخلات السياسة وطبيعة الحكم المحلي حاليا ومحاولات تغيير ديموغرافية الجزيرة بما يضغط على الوجود العربي بموازاة تقديم ذلك الحضور، العماني بالطبع، على أنه تاريخ استعماري واسع من الاضطهاد.

في عام 1923 أقيمت في زنجبار المدارس النظامية التي كان أغلب طلابها من العمانيين كونهم حكّام البلاد، فيما كان للجاليات الأخرى مدارسها، لكن هذا الوضع كانت له عواقبه السلبية بعد الإنقلاب حيث أن تلك المدارس أخذت من العمانيين بينما قامت مدارس الجاليات بالمحافظة على الهويات المنتمية إليها.

عبرنا المسافة إلى بيت بيبي خولة بنت السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي، حفيدة السيد سعيد بن سلطان، وفق ما سمعنا، وكانت أشجار المانجو، أو ما تبقّى منها، تصطف على جانبي الشارع كما أمرت بزرع 250 شجرة، فيما يستعيد معهد الاستقامة هذا الملمح التاريخي بغرس مثلها على المساحات المخصصة له.

كانت جدران المكان تروي سيرة من عبروا هنا، خولة لم تعد تعرف أي زمن استوطن المكان بعدها فترك الأطلال تبكي على قصة كتبتها، جاءت الأحداث لتسيء إلى تاريخها، قالوا أنها كانت تقتل العبيد

وتزرع فوق قبر كل واحد منهم شجرة مانجو، اقتلعوا الأشجار، وتساقطت الجدران، وتساقط.. تاريخ!

في منطقة "بوو جو" بدت لي المتناقضات واسعة، قال رفيق الرحلة أن الصور تبدو معبرة عن واقعنا قبل عشرات السنين، حاراتنا وبيوتنا البسيطة، بيوت العمانيين الباقية من تلك الحقبة، والعمانيين الذين عادوا حاليا للاستمتاع باستعادة الطفولة وجمال المدينة في تجليها المدهش مع الطبيعة اخضرارا ومطرا.. أسسوا مطاعما ومنازلا ومزارعا.. إنما تبدو في سياق المكان مثل حالي إذ استعيد ما هو خارج سياق التاريخ وشروطه الجديدة.

مررنا ببوابة سائلين عن مطعم ما فاكتشفنا أن وراء البوابة مكانا جميلا يمتدّ حتى البحر، وأكلات بها تلك النكهة المازجة بين العربية والإفريقية.. وإذ نغادر المكان كان صاحبه يلوح لنا بذات الابتسامة التي تشبه مذاق الطعام.. هو عماني.. بملامح أفريقية أنيقة.

المحلات التجارية بدا أغلبها بدون لوحات كالتي نعرفها، والشوارع لا تشبه الشوارع، والحياة حكاية تتلى على مهل.. نراها في الوجوه المعروقة تطلب الرزق كفافا، وفي أقدام الصغار يجرون حفاة مبللين بالمطر ورمل البحر.. وشقاء العمر.. وآه من رمال البحر حيث تبدو بيضاء كصفحة نسي الماء أن يكتب عليها حكاية بعمق التفاصيل المنسية بين زمنين.. فصلت بينهما أزمنة.

الحكومة المركزية كانت ترفض فتح جامعة في زنجبار لكن قبل عشر سنوات أقيمت جامعة زنحبار وهي جامعة خاصة، كما أقيمت جامعة سوزا، وهي حكومية بسبب ضغوط المعارضة فأقامتها الحكومة لتسحب من المعارضة ورقة منها، وعملية اختيار الطلاب تأتي وفق الحزب الحاكم .. أقيمت قبل أربع سنوات بتمويل أمريكي.

الجزيرة تشهد تنافسا حتى على التعليم بين القوى المتصارعة، فهناك تنافس سياسي على التعليم، إيران ستبني جامعة باسم ازاد اسلام، ولدى السعودية والكويت جامعة قائمة، فيما يعمل الصينيون على بسط أذرعتهم الاستثمارية وبقوة.

بيت عماني

أثار الزمن تبدو على بيت العجائب

في مزرعة يوسف بن عبدالله الحارثي نكتشف جانبا من الحكاية العمانية في زنجبار، دخلنا مزرعته التي يقول أنه لم يبق إلا ربعها بعد أحداث عام 1964، كانت ذات يوم استراحة للسيد ماجد بن سعيد بن سلطان، تقع في منطقة هي الاخصب في زنجبار، كان يجول بنا في مزرعة «البهارات» حيث نقف أمام أشجار عدة يشرح لنا عنها، يقول عن شجرة من بين 130 نوعا تتضمنها مزرعته أن هذه يصنع منها الصوف، ممّا يتساقط منها، ويستخرج «الفكس" من جذور شجرة القرفة.

يشير يوسف الحارثي إلى أن السيد سعيد بن سلطان أدخل نهضة علمية وزراعية واقتصادية وعمرانية إلى زنجبار لم تكن معروفة قبلئذ، منوها بأن زراعة شجرة القرنفل تحتاج بين 8 الي 15 سنة لتأتي بحصادها، يمتلك الحارثي في مزرعة عدة آلاف منها، يقترب من شجيرات برائحة الفانيلا، شارحا بأن الكيلو من حصادها يبلغ 50 ريالا.

## في قصر المرهوبي وبيت المتوني

عبرنا الحراس الأفارقة باتجاه قصر المرهوبي، حديقة وارفة في بلاد تبدو من أقصاها إلى أقصاها حديقة جميلة لولا ذلك البؤس الإنساني المغلف بالمعاناة والفقر، قصر المرهوبي؛ من أجمل القصور التي بناها السيد برغش بن سعيد في زنجبار عام1882 م بعد بيت العجائب لكنه تعرض للحرق عام 1899، وسمعت أنه بناه لزوجته المنتمية لعائلة المرهوبي.

جلنا على بركة السباحة والحمامات المهيأة على النمط الشرقي، كانت الأطلال تبكي أكثر مما مرّ عليها من سنوات العز، حيث كان المكان فسحة نعيم لم تجد من يحافظ عليها، أو يستثمرها، لم تكن رائحة الورود والياسمين وثمار المانجو ما يحاصرنا ونحن نتفيأ روائح الأمس الزكية، بل رائحة «القاشع» تهبّ قاسية علينا قبل أن تكون على المكان، على مقربة كان مئات العمال يطبخون الأسماك الصغيرة ويجففونها في مساحات فيما يعمل البعض على تعبئتها في «جواني» ضخمة تزن الواحدة منها نحو 50 كيلوجرام.

أما بيت المتوني فقصة حزينة أخرى، تساقط طابقها الثاني، وبقيت الحيطان شاهدة إثبات على زمن

كان البيت حياة بالغة الفخامة والمجد، زمن السيد سعيد بن سلطان، وزمن السيدة سالمة وهي تصف في مذكراتها كيف كان البيت يضج بالعشرات من زوجات أبيها وأبنائه، متباينى الألوان والملامح، لكن يجمعهم البيت كما هو مجد سيّد البيت.

نبتت الأعشاب والطحالب على السلالم التي وصفتها السيدة سالمة وهي تختال كبيقة أميرات البيت صعودا ونزولا، قبل أن يأتي النزول الآخير مع وفاة والدها.. واختلاف أولاده من بعده على تركة أبيهم، من الحكم، ومن المجد الذي تركه بين أيديهم.

استعدت الصور والملامح والأثاث الموزع على غرفات متحف بيت الساحل، صور سلاطين لا يمكن لزنجبار أن تمحوهم من ذاكرتها، مهما بدت المحاولات لطمس المعالم التي تركوها.

## بيمبا.. الجزيرة خضراء

سرت إلى بيمبا، أو كما تسمى الجزيرة الخضراء، وتشكل مع اونجوجا أرخبيل زنجبار، تجاورهما مجموعة جزر أخرى صغيرة أغلبها غير مأهولة، ويبلغ طول بيمبا قرابة 78 كيلومتر وعرضها 23 كيلومتر، وأرضها خصبة جدا، وتشتهر بزراعة القرنفل والنارجيل، أكثر أمطارا من زنجبار وألين هواء، وقرنفلها غاية في الجودة، وفيها نحو ثلاثة ملايين شجرة قرنفل.

بدأت متعة الاكتشاف من تلك الطائرة الصغيرة التي ضاقت بركابها الاثني عشر لكنها حلقت عاليا بسلاسة بالغة كأنما كنت في حديقة العاب تتشبه بالواقع، ولست في طائرة حقيقية مضت تطوف بنا فوق زنجبار حيث نمرح ونبتهج بهذه اللعبة الحقيقية مكتشفين الجمال من الأعالي وكيف كانت الأرض خضراء منبسطة على مزارع فخمة الحسن.. ومنازل فقيرة الملامح.

من النافذة تبدو السحب أبهى، طبقات نجول بالقرب منها.. والبحر أشد سحرا حيث تتمازج الزرقة بدرجات اللون وتداخلها مع السحاب والمطر.

من أطلال قصر بيبي خولة

وما تبقا من القصر المرهوبي

زحام القوارب في الفرضاني مع غروب شمس في يوم زنجباري

الغروب في لحظة تأمل

حقا انها خضراء.. بل مدهشة في هذا اللون الأخضر وهو يتخذ خارطته كمن يرسم على صفحة ماء ممتدة الزرقة..

مطار بيمبا مبلل بالمطر يتساقط صيبا، اتخذنا طريقنا إلى غرفة صغيرة، قاعة الوصول، يغمرنا الترحيب من مستقبلينا، أسماء عمانية وقبائل تعرفها ولايات عمان وقراها على سفوح الجبال أو على حواف الماء.. بجوار ساحل بحر أو ساقية فلج.. لهم سمرتهم الداكنة.. يسألون عن الاخبار والعلوم، لكن جنسيتهم تباغتنا.. تنزانيون كما يقول جواز السفر.. رغم أنف كل المعطيات التي لا تدل على ذلك.

قبل شروق الشمس اتخذت شارعا طويلا ممشى، ومن التطمينات غطاء.. أردت السير في الشارع التقي الناس لا أصافحهم بعيني فقط من خلال نافذة السيارة. . رأيت الجزيرة الخضراء في الملابس التي تشبهنا.. في كلمتي "السلام عليكم" يلقيها رجل أنهكته السنين يدفع دراجته الهوائية. لأراها في العيون الصغيرة حيث أطفال يراقبون هذا الغريب الذي لا يشبههم مهما بدا اللون ليس بعيدا تماما.

سرت ومعي التلاميذ حيث اللون الأخضر يغري بالمشي.. ذاهبون إلى مدرستهم، قليلهم على دراجة هوائية وأغلبهم يمشي، سيارة نقل صغيرة هي حافلة المدرسة وقد تكدسوا فيها.. تمعنت في الملامح، الأقدام المنسحبة بتعب وبعضها حافية، في حقائبهم، في ذلك البؤس المستوجب حمد الله وشكره على نعمه علينا، لا معنى لكل ذلك الجمال أن لم ينظر إليه المرء بكرامة..كرامة الاحساس بالشبع على الاقل ان لم يكن العيش كأي طفل في العالم له حقوق كإنسان يعيش الألفية الثالثة.

الصباحات الناعسة تستيقظ بين لونين، أشجار المانجو تلقي ببعض ثمارها الخضراء فأستعيد طفولتي ومزاجي، متتبعا خطوات الصغار، كل تلك المسافات يقطعونها من أجل الدراسة، تتبعتهم مرهقة حتى إذا أخذوا طريقا فرعيا ترابيا عدت بتعجبي وتعبي دون مواصلة الدرب معهم.

أخبرني أحدهم أن الجزيرة يسكنها الكثير من العمانيين.. ومعلومة أخرى تقول انه قبل عام 2010 تبلغ قيمة البيشي من القرنفل، والبيشي مكيال قديم كان يستخدم في عمان قديما، سبعة الألف شلنج،

فتصاعد إلى 21 الف و500 شلنج حاليا، بعد أن اكتشفوا قيمته قامت الحكومة بتوزيع شتلاته على المزارعين، لكن وحدها تشتريه منهم، مع هذا التحول الإقتصادي ارتفع معه عدد السيارات في الجزيرة من 500 سيارة إلى أكثر من خمسة آلاف.

كان المطر ينسكب بغزارة، لاح لنا المسجد الإباضي فيمّمنا وجوهنا نحوه لأداء صلاة الظهر، افتتحه نائب رئيس جمهورية تنزانيا بحضور سماحة الشيخ أحمد الخليلي مفتي عام السلطنة، كان مزدحما بالمصلين.

وفي الميناء قابلنا الرجل البائس الذي حدثنا عنه مرافقنا ناصر الرواحي، أنه الرجل الذي دمعت عيناه وهو يستعيد من طفولته مشهد السلطان خليفة بن حارب يسير بمهابة السلاطين على رصيف الميناء، وفي المساء التقينا بعشرات الوجوه من الدارسين في أحد مدارس القرآن الكريم التي أقامتها أكاديمية سمائل لعلوم القرآن، جائلين في المسافتين بين مشاريع خيرية أبرزها المساجد، باعتبارها تمثل للسكان المحليين أكثر من مكان عبادة، بناءه بالأسمنت بين منازلهم الطينية، ببؤس البناء وفقره، يعطيهم مكانا يلجأون إليه، حينما تضربهم العازة بأطنابها.

في دار المخطوطات الوطنية لم أصدق المشهد، كانت الغرف الصغيرة فقيرة بقليل من المقتنيات، لكن في غرفة محاصرة بالرطوبة وماء الأمطار المتدفقة باستمرار رأيت الوثائق في أكياس وكراتين!

# بابل..
# زهو العراق.. وجرحه

أجمل المواعيد ما لم ننتظره..

واحلى المدن تلك المطلة على غير موعد.. تلبس فتنة انثوية لتدعوك إليها في لحظة عجلى.. وفي موعد اول. دعاني «بابليّون» إلى مدينتهم بابل، ولم أكن أعرف على وجه التحديد أين تقع على خارطة العراق، إذ أن خارطة جديدة تكاد «تقع» على العراق، حسبما يشير سياسيون ومحللون وغيرها من المكونات التي نثرها الإعلام أمام أبصارنا.. سعت إلى إقناعنا، مهما بلغ حجم شكّنا فيها، وثقتنا في.. العراق.

لم أكد احطّ رحالي حيث قدمت من اسكتشاف مدينة أفريقية بعمق التاريخ وهو يغتسل على ساحل زنجبار حتى يممت وجهي صوب.. العراق.

وكان المسار يحملنا إلى مطار النجف.. مواصلين لا قصدّية تأخذنا كما تشاء المقادير، حيث لا معنى للمخاوف من الموت المترصد.. في شارع أو مقهى.

هذه العراق إذن: القصائد والمدائن وكربلاء.. وما شاء للذاكرة أن تسفحه إذ تستعيد ما هو أصعب من فكرة الاستعادات.

هي عراق نازك والسياب والجواهري والبياتي يصيغون على دجلة مواعيد القصيدة تأتي بها النسمات

مع ارتعاش الموج.. وتكتب الشعر على غير ما اعتاده الفراهيدي، رغم أن بلاد الرافدين احتضنت رفاته.
وهي حنجرة ناظم الغزالي «عيّرتني بالشيب» وبحة صوت سعدون جابر «يا طيوري الطايرة» .. وشجن ياس خضر وغزليات كاظم الساهر ومقامات فريدة، ترفرف فوق الفرات.
عراق سنوات الحروب والحصار والمفخخات والصراع الممتد من قصور السياسيين إلى معتقدات الفقراء.

## في بابل نحط الرحال

كانت هناك بابل على الوعد والموعد.. وأمامنا لافتتة تقول أن هذا مطار النجف الأشرف، بما تعنيه الكلمة من استعادات دينية وتاريخية.. تخاتلني النظرات عبر موظفي التأشيرات وهم يفتشون عنها بين أوراق جواز السفر.
وفي الطريق إلى مدينة الحلّة عبرتنا نخيل العراق أو ما تبقّى منها.. وعبرنا تفرعات نهر الفرات كأنما الماء يخفي شهادة التاريخ عما عرفه هنا من كرامات أنبياء وسير أولياء.. ودموع بكاة.
وكانت قرية ذي الكفل تستعيد القصة القرآنية كما هي صور شباب على الشوارع تصفهم العبارات بالشهداء.
كان للشوارع ألفة تعيدها لافتات الكتائب والحشد الشعبي إلى واجهة عراق يحاول النهوض كما يستحق كل عراقي فيه.. وتلك الرايات السوداء والخضراء في أمكنة تتنفس محبة الإمام علي وهي تنثر صوره، وتسفح دمعها على الشهداء من ذريته، وهي تستذكر الوقائع كأنما التاريخ لا يزال طريا بدمائهم الزكية.
أحاول اقرأ المكان وسط غبار الطقس الصيفي الزاحف والمناخ السياسي المتقلب.. أن أقرأ سيرة بلد العباسيين بأفق العروبة لا المذهبية.. وأن اتصفح سيرة بغداد ولو عبر عناوين اللافتات على الشوارع.
أراها بانتظارات الفلاحين لموسم حصاد الحيطة، بمرقد النبي أيوب حيث الآبار السبعة تخفي أسرار ماءها.. بتلك الأمكنة التي تغالب السنوات العجاف والأحوال الاقتصادية في زمن تراجع أسعار النفط.. وانقشاع ضباب بقية الأزمات إذ رحل الزعيم الأوحد والبطل المهيب.. فانفلقت تربتها عن عشرات الزعماء وآلاف الأبطال المتناحرين في مرحلة نقاهة هشة.
تختزل الحلّة الأرقام في أسماء شوارعها، شارع الستين والأربعين والعشرين.. وترقب افتتاح شارع المائة،أسأل مستقبلنا عن سر ذلك لكن الإجابة ليست حاسمة لتوضيح الغامض. وأسأل التاريخ عن

بابل، لأجدها عاصمة البابليين أيام حكم حمورابي حيث كان البابليون يحكمون أقاليم ما بين النهرين وحكمت سلالة البابليين الأولى تحت حكم حمورابي قبل الميلاد معظم مقاطعات ما بين النهرين، وأصبحت العاصمة التي تقع علي نهر الفرات.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن عدد ملوك سلالة بابل والتي عرفت «بالسلالة الآمورية / العمورية» بلغت 11 ملكا حكموا لمدة ثلاثة قرون (1894 ق.م. 1594- ق. م.)، وشكلت هذه الفترة أوج عظمة حضارة المملكة البابلية، وغدت المنطقة تتحدث اللغة البابلية، وازدهرت مكانة العلوم والمعارف والفنون وتوسعت التجارة لدرجة لا مثيل لها في تاريخ المنطقة، ومثّل حمورابي الحاكم الأشهر من خلال قانونه الموحد في حكم الإدارة المركزية، وقد دمرها الحيثيونعام 1595 ق.م. ثم حكمها الكاشانيون عام 1517 ق.م. وظلت منتعشة ما بين عامي 626 و539 ق.م، خاصة خلال حكم الملك الكلداني نبوخذ نصرحيث قامت الإمبراطورية البابلية بامتداد من البحر الأبيض المتوسط وحتى الخليج العربي. ، وفي عام 539 ق.م استولي عليها قورش الفارسي وقتل اخر ملوكها بلشاصر.

ينهكني التاريخ إذ أطلّ عليه، حيث كانت المسافة بين مطار النجف ومدينة الحلّة كافية للعودة إلى الحاضر، الشوارع المقاومة للغبار وزحام السيارات والبشر، والمحلات التجارية التي تبتغي عبر مسمياتها بركات الأولياء والشهداء.

عبرنا نقاط تفتيش أمنية، والإجابة متكررة من مستقبلنا: «معنا ضيوف مهرجان بابل»، وستبقى معنا حيثما تحركنا، وفي مداخل الأسواق وأماكن الفعاليات الثقافية والفنية، لنجتاز الحاجز علينا إثبات أننا بهكذا صفة.

### صدام.. بطل!

في منتجع يشي بفخامة تقاوم فعل التقادم قيل لنا هنا ستقيمون، مساحة خضراء رائعة تجاور شطّ الحلّة حيث يمنح الفرات هديته لهذه المدينة علّها تستطيع غسل أحزانها المتوارثة، منذ زمن الإمام علي وابنه الحسين، وصولا إلى زمن صدام حسين ومن أتى بعده، الحدائق بورودها وياسمينها لا تستطيع إخفاء حالة المرفقات السكنية التي آوينا إليها بعد تعب، لكن هناك قاعة كبرى بها غرف تنتمي إلى الزمن

آثار بابل ..حكاية خالدة

الصدامي، حيث القاعة والجناح والمطعم وغيرها مما وضع عليها الرئيس السابق صدام حسين بصمته، بذات البهاء والألق.. والفخامة.

أشاغب حروفي الصباحية في قاعة مبنى أشبه بمركز مؤتمرات يقع قريبا من سفح التل وطلة القصر الصدامي.. على مقربة مني غرفة رئاسية لم يعد الزعيم فيها يترك هيبته فيضع الخوف طلاءه على الحيطان دون حاجة لأجهزة التنصت.

رحل صدام تاركا جراحه وأسئلته، للعراقيين يحصون جراحهم في زمن الطاغية وزمن ما بعد الطاغية.. يقول لي مواطن عراقي اننا نستطيع ان نشتم السياسيين علنا كما نحب، قد تكون حرية لكنني أشاكسه بالقول أن الشتم ليس حرية، دليل تحرر من الخوف فقط.. يضحك الرجل ويضيف: مشكلتنا هم السياسيون.. حيث الفساد والإفساد. والظلم والإظلام.

لم أقل له أن حرية الشتم ليست متاحة إلا تجاه الأمس، الزمن البائد، حينما غادر «حارس البوابة الشرقية» و»الزعيم»، لكن لا يمكن أن تخدش الألسن زعماء آخرين يعيشون الزمن السائد، وفي زمن الإنفتاح تكاثرت الفضائيات في هذا البلد حتى يقال أنها تبلغ 87 قناة منها نحو 65 قناة اخبارية، وبسبب الظروف والأحوال الاقتصادية بدأ الحنين يزداد لدى البعض للنظام الصدامي.. فاقترح أحدهم إقامة محافظة باسم محافظة الحنين ينقل إليها كل من يحنّ إلى زمن صدام حسين، وعليه تحمّل ما كان في ذلك العصر، هكذا تتفاوت رؤية الإعلام، الفضائي أو المكتوب، بانشقاقات ترسخها الطائفية، أو ترسخ الطائفية، يقول أحد المتحاورين في ندوة إعلامية أن الإعلام المستقل كذبة كبرى، وأن التجار يملكون دكاكينا تسمى فضائيات!.

ذات صباح كان الغبار يخيّم على المحلّة ويكاد يغيب القصر في أفق مغبر، الشط ينساب بالحكايات يرويها للنخيل والتاريخ.. أجابه سطوة ضغط التاريخ لأخرج من حصار صدام حسين لذاكرتي مستعيدا صور الذين ابكاهم عقودا.. وهناك ربما من يبكي عليه الآن.. كان محدثي الآخر يحدثني بفرح التخلص من صدام نافيا أن يكون طائفيا في فرحه برحيل الزعيم أو المجرم أو ما شاء للعراقيين التنويع في توصيفه حيا أو ميتا، يقول: فرحنا بمجيء الأمريكيين نحن الذين اوجعنا عصر صدام، لكن لم نتوقع

ما حدث بعد ذلك.

فرحة «الحلّيين» بنا كبيرة، يكررون علينا أن الإعلام يكذب، فلا تصدقوا الاخبار، ولا شاشات التلفاز.. ما يحدث ليس مهولا، بل تهويل، لن ينال من حب الشعب العرقي للحياة.. عبر "مهرجان بابل للثقافات والفنون العالمية" يريدون القول بأن بلدهم يعيش ضمن الأمان لا الأمن، وقد خبروا ما معنى تسلط الأمن، يكررون أن تنظيم داعش ينهزم.. والحياة تسير في شوارع بغداد رغم أنف الإرهابيين.

أصدقهم لأنهم عبروا الأسوأ كما أدعي.. كأنما لا يوجد أسوأ من عقود الحروب والتفجيرات والموت المتربص.. أملهم في بلادهم كبير لولا أولئك السياسيين.. يمارس الناس فرحتهم بهكذا قدرة وحرية قادرة على انتقاد السياسيين دون ان يغيبوا وراء الشمس، كما يقال.

كانت الشاشات تنقل تفجيرات بغداد بينما مهرجان بابل يحتفي بالحياة، على خشبته استضاف شابا وشابة تعارفا خلال المهرجان فاحتفلا بالخطبة أمام حضور لافت، وبمشهد أكثر إلفاتا لقدرة الإنسان المضي باتجاه الحياة.

### حدائق.. وحكايات.. معلقة

كنت أبحث عن حدائق بابل المعلقة، عن عشتار، بوابتها المعروفة، وآثار بابل، كأنّما أحتمي بالتاريخ، بمجد العراق قبل أن يجتاحه المغامرون والمقامرون، به أرضا وبشرا، عندما بنى الملك نبوخذ نصر الثاني ليرضي زوجته وحبيبته ساميراميس، من أجل الحب أنشأ واحة هائلة مليئة باللون الأخضر وسط الصحراء القاحلة التي كانت عليها العراق في هذا الوقت، واكتشفت من خلال بعض النصوص الرومانية القديمة التي كانت تتحدث عنها بإعجاب شديد كونها «تعبر عن قمة الرومانسية في هذا العصر".

سميت بهكذا وصف كون الحدائق مزروعة في شرفات المبنى على ارتفاع نحو 24 مترا، محاطة بسور قوي سمكن 6.7 متر، وطوله 17 مترا، ويقال أن مساحتها كانت تقارب 15 ألف متر تقريبا، ووصف المؤرخ القديم سترابو وسيلة رفع المياه إلى هذه الحدائق بأنها عبقرية، كون أن المطر حالة نادرة في البيئات الصحراوية المحيطة، وكانت الحاجة ماسّة لاستحداث طريقة ري للنباتات المتدرجة في كل

تمثال نبوخذ نصر في جامعة بابل

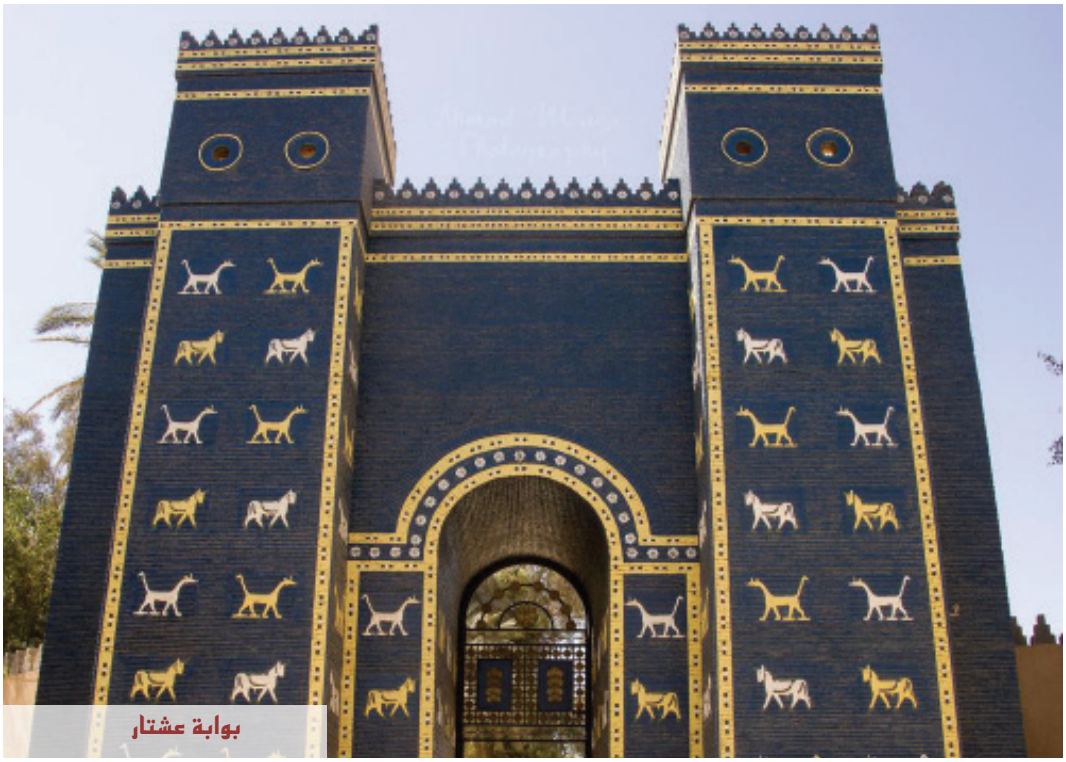

بوابة عشتار

تاريخ بابل القوة والمجد

طابق من وطوابق المبنى، فتوصلوا إلى إقامة مضخة تسلسلية تعمل على رفع المياه إلى الطوابق العليا مكونة من "عجلتين ضخمتين بعضها فوق بعض ومتصلتان بسلسلة كبيرة مناسبة لحجمهما وتتعلق على هذه السلسلة بعض الدلاء، عندما تدور العجلة الموضوعة في مصدر المياه فإنها تحرك السلسلة وتمتلئ الدلاء المعلقة بها بالمياه مما يسمح برفعها إلى الأعلى وإلقاء المياه في الأدوار العليا ثم تعود لتمتلئ من جديد عند عودتها وهكذا"، لتقام على أرض بابل واحدة من عجائب الدنيا السبع التي بناها القدماء في بلاد العرب، لكنها تبقى أسطورة متوارية.

وأمضي خلف التاريخ، باحثا عن بوابة عشتار العظيمة، تلك التي كانت تقف بجلال ومهابة على مدخل مدينة بابل حيث شيدت في عام 575 قبل الميلاد، باستخدام الأحجار المصقولة الشبيهة بالسيراميك، وتحمل اللونين الأزرق الكوبالت والأخضر البحري، وزُينت هذه الأحجار بنقوش تصور 575 تنينا وثورا، وضعها الشاعر الإغريقي أنتيباتر الصيداوي، الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، ضمن عجائب الدنيا السبع في العالم القديم، وبجوارها سور المدينة، مدينة واحدة تضم اثنتين من هذه العجائب، فعلتها بابل قديما، والتي وصفتها النصوص القديمة، منذ هيرودوت وحتى أسفار العهد القديم، بما عرفته من معابد وأضرحة وقصور زخرت بها، حيث وصل عدد سكانها في تلك الفترة نحو 200 ألف نسمة، بما كان يكفي لتكون الحضارة الأكبر في العالم، فيما تجمّلت المدينة بكل أشكال الحياة، حتى من ذلك الطوب المصقول المتنوع في ألوانه بين الأزرق والأحمر والأصفر.

بدأ علماء الآثار الألمان أعمال التنقيب في المدينة عام 1899، وفي عام 1902، كشف علماء الآثار النقاب عن بوابة عشتار؛ وقد وُجدت سطور منقوشة على الحجر الجيري، عبارات عن أقوال ترد على لسان نبوخذ نصر: "لقد وضعت الثيران البرية والتنانين الشرسة على البوابات، ومن ثم قمت بزخرفتها على نحو فخم ومترف، لربما يحدق فيها الناس في ذهول وعجب".

أغيب خلف التاريخ لأطول مساحة ممكنة لولا أن الواقع يستحثني إليه، أسمعه في القصائد التي تتلى، حيث البكائيات الحاضرة بقسوة الحاضر، الشعراء يبكون ويتباكون، المسرحيون أيضا، فاصل طويل من الحزن يلفّ العراقي ويحوّل إبداعه إلى لغة مأساة.

ضمن الندوات التي حضرتها كانت ندوة بمائوية ما يسمى دكة عاكف، مائة عام على مذبحة ارتكبها العثمانيون في مدينة الحلة، ففي عام 1915 دخل القائد العسكري العثماني(عاكف بك) على رأس جيش الى الحلة ومع تصاعد الأحداث والمواجهات قتل عدد كبير من أهالي الحلة.

### في تخوم.. قصر صدام

على تلة عملاقة يقع مبنى باذخ البهاء، بإطلالة أتوقعها ساحرة، وبهيبة كأسد جائم يطل من عرينه على المدينة، قيل لي أن ذلك قصر صدام، يطل من علوه ليقول للبابليين أكثر من حكاية.. الزمن الصدامي وزمن ما بعده.. والمخاوف المكبوتة خشية اكتشاف أن ما تغير فقط هو ذلك الإحساس المريع من الطاغية وهو يجتث الرجال والنخيل.. والكرامة.

صنع صدام حسين جبالا ثلاثة، تلال ترابية عملاقة، واحد عليها قصره الذي لا يعرفون إن أقام فيه أو لا.. ولم يتصوروا يوما كيف يخدش الزمن هيبة القصر ليغدو مبنى كئيبا ينتظر القرار حول تبعيته، مع انه سيدر ذهبا لو تحول إلى فندق له إطلالته المهيبة على المدينة القديمة واخضرار المنتجع أسفله وشط الحلة بجواره.

لم أكن على يقين تام بأن ما أشاهده على تلك الربوة أمامي قصر صدام حسين، أحد قصوره المتكاثرة في العراق، لكنه في بابل يكتسب قيمته إضافية لأكثر من سبب..

أبقيت على حيادي تجاه المرحلة، وتجاه صوت التوحيد في داخلي، وصعدت القصر محاورا زمنين، زمن صدام وزمن ما بعده.. ومن بعده.

كان حرفي الصاد والحاء يلتفان بهيبة الرجل الذي صنع الخوف في العراق زمنا، مؤيدوه يقولون أنها كانت هيبة العراق وطنا واحدا، وكارهوه يرون أنه طاغية وزّع الخوف والموت على بلاد الرافدين ووصولا إلى دول الجوار.

القصر تحفة معمارية تطل على امتداد من البهاء والجمال، ماء شط الحلة يختال زهوا بمجد الفرات، محفوفا بمزارع النخيل كما هو شموخ العراق، وعلى الجانب الآخر تقاوم المدينة الأثرية جريان الزمن. يشير أحد الدارسين، ماتشينيست، وهو أستاذ بجامعة هارفارد، إلى أن الرئيس العراقي الراحل صدام

حسين رأى في «السليل المباشر لهؤلاء الأبطال البابليين ذوي التاريخ الكبير. لذلك، بدأ في ثمانينيات القرن العشرين إعادة تشييد الموقع على ذات الشاكلة التي كان عليها»، وعلى أسس المعالم الأثرية القديمة، شيد صدام نسختين لبوابة عشتار، ولقصر نبوخذ نصر، مستوحيا من النمط المعماري الخاص بالملك البابلي نقوشا تُخلّد ما شيده هو في ذاك الموقع الأثري.

ولذلك فإن تشبّه صدام حسين بنبوخذ نصر فيه الكثير من المصادفات التاريخية فالملك البابلي القديم دمر مدينة صيدا في العهد الفينيقي، وألحق بالجيوش المصرية الهزيمة، وفي عام 587 قبل الميلاد دمر ونهب معبد سليمان في القدس، وفي كل مرة كان تزحف جيوش نبوخذ نصر على أراضٍ جديدة، كانوا يستعبدون سكانها وينهبون ثرواتها، مستفيدا من القوى العاملة التي يضيفها إلى جيشه من عبيد الأراضي المحتلة، ومن الثروات الناجمة عن عمليات السلب والنهب، في إعادة تشييد عاصمة ملكه، وبينها قصر والده وحدائق بابل المعلقة وجدران المدينة..

هكذا إن تلاقى صدام حسين بذات المصير مع نبوخذ نصر والآثار الخالدة التي كان يريدها كلاهما، ففي عامي 2003 و2004، حوّلت القوات الأمريكية والبولندية منطقة الحفريات الأثرية في بابل إلى قاعدة عسكرية.

انهزم الزمن الصدّامي، وغدا القصر ملاذا مفتوحا لتسطير كلمات المراهقين على جدرانه، تساقطت زخارف، أو أسقطت عمدا، أرضيات اقتلع منها رخامها، الثريات الثمينة غادرت السقوف إلا ما أصبح لا يساوي حمله، أبواب خرجت من عظمة البناء تاركة الزوابع تدخل كيفما تشاء، والحسرات تجمع المحبين والكارهين، بين من يندبون مجدا للقصر زال برحيل صاحبه وبين أولئك الذين يرون مقومات العراق التي ذهبت لبناء القصور الرئاسية بينما كان راتب استاذ الجامعة عدة دولارات.

لم يعد صاحب نقش «ص. ح» ليمنع اسمه فقط من يتجرأ على ذكر اسمه بسوء فقط، فكيف بالشخبطة على قصر صدام حسين، قلت لمرافقي: كانت هذه أموال العراق فكيف عبثتم بها هكذا؟

أجاب أن الأمريكيين احتلوا القصر فورا، وبعد أن أخذوا ما رأوه ذا قيمة فتحوا الأبواب أمام الناس، الحانقين والحاقدين والمنتظرين فرصة انتقام، ليدخلوه، بما يكفي للقول أن العراقيين نهبوا كل شيء.

القصر كما يبدو من المنتجع

المدينة الأثرية كما تبدو من التل الذي عليه القصر

سقف المطعم في القاعة الرئيسية

أبهة القصر مع رمز (ص.ج)

صورة للمكان من ربوة القصر

القصر ..بدون أبواب

العبث على حيطان القصر

بقيت الجدران متماسكة، تنتظر غوثا، وإجابة السؤال: من يشرف على القصر؟! هيئة الآثار تريده، والمحافظة تدّعيه، وهو الكنز الذي يمكنه أن يشكل مع بقية منتجع بابل موردا سياحيا هائلا، حيث الإطلالات الساحرة من أعلى قمة في المكان، بجوار كنوز أثرية مهمة، والشط ليس ببعيد، والمنتجع أسفله حديقة غنّاء مع مباني أبرزها القاعة الرئيسية بديكوراتها الفخمة، مع وجود جناح رئاسي كي يتمتع «أبو عدي» باستراحة هانئة دون حاجة لصعود التلة صوب القصر المنيف هناك.

على «طوب» القاعة كان النقش جليا بما يريد صدام حسين أن يكونه، ليس رئيسا دولة فقط، إنه أكبر من ذلك، كل «طوبة» حملت اسمه كنقش أثري لا يمكن إزالته إلا بتشويه المكان، وضياع فرصة الاستفادة منه، في ظل عدم وجود بدائل واضحة المعالم حيث الحالة السياسية تعاني من تحديات جمّة.

سألني أحدهم إن كنت دخلت المطعم الرئاسي؟

أجبته بالقول بين نعم ولا، شرفة مهيبة تمتد عشرات الأمتار على النهر مباشرة، مع أعمدة فخمة، مع تجهيزات كان مرافقي يشير إليها بإكبار وتعجب، لكني لم أدخل القصر، فكانت المفاجأة هناك..

سقف مزخرف بما يسمى آيات صدام حسين الحسنى، وعلى حواف القاعة الفخمة أبيات شعر للراحل عبدالرزاق عبدالواحد، وعرف عنه أنه شاعر صدام، أو الشاعر الذي انحنى صدام حسين ليشعل له سيجارته، كما روى في حديث تلفزيوني..

تتبعت الأبيات، دون تحديد ترتيبها.. قرأت:

- حاشا وربك جاعل أنواره فيها وربك موقد أضواءها
- يا زهو العراق وشمسه يا من بضحكته ينير سماءها
- يد تقاتل كي تستر عرضها ويد تقاتل كي تشيد رداءها
- تبقى بلاد الرافدين منيعة صدام قد عقدت عليك رجاءها
- افرش رداءك فوقها يبقى رداؤك وهم الواهمين غطاءها

استعدت الزمن الصدامي، الهيبة رغم كل شيء، العظمة السائرة ببصمة لا تمحى، كان الورد يتفتح

في الجنائن المجمّلة للمسافات بين الأبينة الفخمة وماء الشط، عشاق وعائلات يتنفسون زمنا جديدا، حيث لم يدر بخلد صدام حسين أن يوما سيأتي تفتح فيه مغاليق القصور أمام العامّة يتفيأون ظلال أشجار زرعت من أجله، وقصور حملت نقش اسمه.

قلت لصاحبي أن العثمانيين تركوا كنوزا عادت بالذهب على العلمانية التركية الجديدة حيث القصور والمتاحف يقف السياح طوابيرا لدخولها بتذاكر ليست رخيصة، وفي جواركم لم تنس الثورة الخومينية قصر الشاه، فأصبح مجمع القصور الشاهنشانية موردا خصبا يأتي السياح إليه، ليروا كيف كان هذا الحاكم، إذ بنيت القصور من أموال الشعب، وعليها أن تعود بالأموال على هذا.. الشعب.

لكن قصيدة قديمة حاصرتني فعدت إليه حيث يقول عبدالرزاق عبدالواحد، وهو يرثي صدام، ويرثي بلاده أيضا، كما يندب حظه:

أم هيَ الحِكمَة العَظيمَة شاءَتْ بِلادي أنْ يَحتَويها البَلاءُ

لِيَرى أهلُها إ لى أ يّ ذلٍّ بَعدَ ذاكَ الزَّهْو العَظيم أفـاءُوا؟

لِيَرَوا كَيفَ لَحمُهُم يَتَعـاوَى حـوَلَه الأقرِبـــاءُ والغُرَبـاءُ

فَإذا الأبعَدون مَحْضَ أكُفٍّ والسَّــكاكينُ كـلُّها أقـرِباءُ

في الطريق إلى المطار كانت السيارة المقلة لنا تعبر حواجز التفتيش والنقاط الأمنية واحدا بعد آخر، وكانت النجف تستعد للشعبانية حيث تستقبل الآلاف من البشر لزيارة الأضرحة، ضريح الإمام علي ونسله، وذلك بعض ما حصدوه من الزمن الجديد، بعد اختناق دام عقودا من التضييق السابق، ولذا من حقهم القول أنهم استراحوا من عهده، كما يقول مخالفوهم: ليته يعود.

ملاحظة: بعض المعلومات استقيتها من مواقع إلكترونية متعددة، بتصرف.

# المحتويات


السفر.. متعة القلق..... 4

بوح عاشق لنسائه العشر"..... 6

موسكو..الثلج يأتي في الربيع ..... 12

جورجيا.. لؤلؤة القوقاز ..... 38

طهران..مدينة تتنفس عصرين ..... 58

إندونيسيا...بلاد تصنع الطبيعة ضحكتها..... 72

الهند..نظرتان «لا تكفيان»..... 90

تونس.. أيتها الخضراء جئتك عاشقا..... 116

بروندي..الجمال القلق..... 150

زنجبار.. أرض القرنفل.. والسلاطين..... 164

بابل..زهو العراق..وجرحه..... 182